

الفرار الأخير

تأليف

نجيب محفوظ

الناشر

مكتبة مصر
٣ شارع كاسر سعدى - الجيزة



الفرار الأخير

في حومة الموموم لا بأس من التماس الرحمة في رحاب
الأضياء التي أحبها القلب . هي أيضا حقيقة ، غرست جنورها
في الوجود . ومن حق الحران أن يجفف عرقه ويبل ريقه .

المرح بين يد حنون وحنن حنون ، الغفلة السعيدة عن
الزمن ، نيل المطالب بالتمنى ، التمرغ في بستان الحرية قبل
الوعى بها ، مسرة الوقفة والعثرة والضحكة ، والأسئلة
الكبيرة تنهمر اعتباطا . ما أكثر ما يعجب وما يسر . في
الانتظار سوارس والتزام والتزوللي تفرق قضبانه النحيقة
الحدايق . ومن الورق تصنع القوارب الصغيرة وتعمم في
الجدول لتعضى مع المياه الوائبة إلى البلاد المجهولة . والشمس
لأضرحه الأولياء بأعذب أماني القلب ، والاشترار في حشر
الأسماك بالثواب ودهنها بالثقيق اللتوت ، وإذا سمع أذان
الفجر في هنيء الليل طرب القلب لاقتراب الصبح واللعب ،
وعلى الوسادة يرقد تمثال الرحالة المصنوع من الصفيح المسون
فيسأله هل بلغ بلاد الواق ورأى العجائب ؟ . والأحباب
كثيرون من باعة حوالة وزفة السيرك ومواكب الفنون
والأقارب الريفيين وأساطيرهم عن العفاريث وقطاع الطرق ،
ولكن لكل حكاية نهاية سعيدة .

المهد

ودعوة للخروج في صحبة الأب أو الوالدين هي عز
لبنى . في بدلة بمار يسير تياها . يجلس الأب في حلقة من
الأصدقاء يحقو الجندى الميدان الأوبرا ، وينعزل هو وقنح
الدندورمة في الطرف . ينظر إلى الميدان وحديقة الأزيكية
ومثال إبراهيم باشا ، وأحيانا يتابع أحاديث الصحاب
ويستمع بانسراح إلى ضحكاتهم . لماذا يقهقهون وتترقص
شواربهم المجدولة الأظراف ؟ . لا يدري ، ولكن وجهه
يجملمهم فيضحك . ويسمع أيضا أن فلانا طلق زوجته . وأن
شارع الخليج كان يستقبل مياه الفيضان في زمن مضى ،
ويتحول إلى ترعة تشق وسط القاهرة . ويسأل أباه :

— مثل الزرعة التي في لونابارك ؟

فيقول الأب ضاحكا :

— أنت من يوم ما عرفت لونابارك والسينما حصلت في
دماغك لوثة ..

ورأى في ميدان العتبة الحضراء موقف حمير وهما في طريق
العودة إلى الحي العتيق ، فاقوح على أبيه أن يركبا حمارين بدلا
من سوارس ، ولكن الرجل سخر من رغبته قائلا :

— الله يتيب ذررك ، لا فائدة من محاولة تمهيدك .

ولكنه لم يظن عليه بشراء جهاز صغير خاص بصنع
الدندورمة والجرائنة ، سهل الاستعمال ، فكان يملأ وعاءه
الداخلي باللبن الحلي حينا ، أو بالعمونة حينا آخر ، ويشتم
الدندورمة والجرائنة ، ما يملأ حلة متوسطة .

وأول العشق يوجد في دنيا الأطلعمة والحلوى بصفة
خاصة . البيت يوجد بالمهلية والأرز باللبن والسحينة والحليب
والشهد والعسل الأسود بالطحينة ، ومن الفواكه البطيخ
والشمام والبرتقال والعنب والتين والخوخ ، أما الشارع
فيحتص بالدوم والتضاح المسكر وبراغيت الست والمسن
والقطائر وقرق القمة البهيلة والكسكسي . الحلوى فاتنة في
ذوبانها ، ساحرة في نشوتها وسرياتها في الحواس . وهي
أول تدريب لعشق الجمال . ويمضى الصغير عماليمه لا يشبع
ولا يرتوى ، يستقبل بفيه المشوق النهم ما لذ وطاب ، ويتوج
جهاده بالكثافة والقلاوة والجائوه والشيكولاطة .

وفي كلمة أو كلمتين تعرف سر الدنيا والآخرة . حقا إن
المعارف كثيرة ، الظلمات محدقة ، ولكن الله رحيم رحيم ،
ينشر عنايته الإلهية فتحيط بكل شيء ، وقد يُسر لنا مفتاح
الأمن والأمان ، بالآية تتلوها ، بالصلاة نقيمها ، بالصوم
نتقرب به إليه ، فنصفو الدنيا ونحلو ونهب الخير والبركة ،
ويتقهقر إبليس وجيوشه ومنتظر هناك الجنة ونعيمها .
ولا بأس من أن نستزيد من الأمن والأمان بزيارة ولي ،
أو تعليق عميمة بالطاقيّة ، أو يحرق قليل من الحور .

— ما أسر السعادة في الدارين لمن يشاء .

وسطح البيت مملكة لنعم بحرية مطلقة . سقفه صماء
الفصول الأربعة بألوانها المتباينة . وفي الأفق قباب عديدة
وماذن مفردة ومزدوجة ، تستوى بينها مائدة الحسين
كالعروس بقدها للمشوق المنطلق . الكناكيت تتجمع
وتتلاصق تحت الشعاع كأنها خميلة متكاملة الألوان . تقيق
الدجاج يترامى من وراء الباب الخشبي . رعوس الأرناب تبرز
من أفواه البلايص المائلة . وأنت تجمع البيض في حذر
جليابك ، وتقدم أعواد البرسيم للأرناب ، وترمى الحب
للكناكيت . وثقة كرسى خيزران قديم تقول له كن سوارس
أو كارو أو سيارة أو طائرة فيكون بقدره الخيال الطموح .
والطشت يملأ بالماء فيكون بحيرة ، والسلم الخشبي ينم على
الأرض فيصير قضيباً للترام . الرهم والحلم والحقيقة شيء
واحد . وفي الصيف تنقل الأم الكاتون والحلل إلى السطح
تحت تكعبة اللباب ، فيشارك في اللعبة الجديدة بما تجلو له ،
يغسل اللحم ، يذق التوابل في الطون ، يتفرط للملوحية ،
وفي المواسم يسهم في نقش الكعك ولست العجين وتسمين
خروف العيد . ومن فوق السطح رأى الطائرة وهي تمرق في
القضاء وأزيرها يملأ الجو ، ولحج سائقها في جسم اللعبة
الصفيح ، ورأى التمر في الليل ، ورصد ظهور ليلة القدر
ليكون من أهل الحظوة والسعادة . ورأى أيضاً قصوات
المواري وهم يتصارعون كالجوحش ، كما رأى التباريح في
مواكب ثواره وسمع هتافاتهم ، وشاهد أعداءهم ، وهم

يطلقون الرصاص بلا رحمة . وفي الليالي الحلوة والنجوم
تزهو ، تفرش الأم فروة تحت اللبابة فيترع أمامها على ضوء
مصباح يشتعل فوق الطويلة ليمسح حكايات الإنس والجان .
ومع أن أكثر الوقت يمضي في وحدة إلا أنه لا يمضي في
صمت . حوارة متصل دائماً مع الكناكيت والدجاج
والأرناب والتعل ، ومع الجصاد أيضاً كالكرسي والطشت
والسلم والتشمال الصفيح ، ويتجاوز ذلك إلى الخيالات
والأشباح . ولكن السطح أيضاً كثيراً ما يكون ملتقى الأهل
والجيران ، فيحلو السمر ويطيب الغناء ، ويكثر اللعب مع
الأقران من الذكور والإناث . وتلك العروس الصغيرة بنت
أم علي الداية التي قادتهما الغريزة الكامة الغامضة إلى طريق
اللهفة المحفوف بالنشوة والخدر .

وموسم القراقة من مواسم الأفراح ! . أليس موسم الفطائر
والزهر والريحان ؟ . والمسورة بصحبة الوالدين في مهرجان
حافل من النساء والرجال والأطفال ؟ . ويتطالعك باب الحوش
المفتوح على مصراعيه ، فترش مدخله بالرمل ورش بالماء .
يضعون السلال في حجرة الرحمة ويهرعون إلى القبر ليغطوه
بالأزهار . إنه قائم بشاهديه كما كان لا يتغير ، غارق في
صمته وغموضه ، منير للحيرة وحب الاستطلاع . يمعن النظر في
قاعدته لعله يطلع من منفذ عما في جوفه . حدود وأقارب لم
يرهم ، يرقدون في سلام ، ويتلقون من الزيارة والتلاوة أنسا

ورحمة . والوالدان بخاطبان القبر بكلام غريب وكأنهما
بخاطبان أحياء يسمعون ويستجيبون . ويتلى القرآن ، وتوزع
الرحمة على الفقراء والشحاذين . ويتسلل إلى الخارج فيجد
نفسه بين كثيرين من أقرانه فيشجذبون أطراف الأساطير .
كل شيء يدعو للفرح فلماذا تدمع العيون ؟!

ولكن ما شأن هذه الحارة التي تلوح أحيانا فوق سطحها
الملاصق لسطح بيتنا ؟ تسمى الزرع أو ترقق الحمام . لها وجه
أبيض منير ، وشعر أسود غزير تضمه في صغيرة طويلة
مسترسلة ، نظرتها جذابة باسمة ، وروحها خفيفة فائقة . هي
أكثر منه بزمن طويل ولكن أمه تخاطبها كما تخاطب ابنة لها .
تداعيه بأحلى الكلام ، وتتحفه بين الحين والحين بالملمن
ونبوت الغفير ، وإذا زارت أمه بصحبة أمها رفعت بين يديها
وقبلته . وهو يخل منها ويرغب في المزيد منها . وكلما
صفا له الوقت ملأت خياله . ومرة قالت له أمه بحضور أبيه :

— أنت تنظر إلى ابنة طول الوقت تريد أن تأكلها ..

فقال :

— إنها جميلة .

— وماذا تريد منها ؟

تخبر قليلا ، ثم قال :

— أن أتزوجها !

فضحك الأب وقال :

— عيبك الله .. انتظر حتى تعرف كيف تكتب اسمك
دون أخطاء ..

ويعشق القلب رمضان والعيدين ويحسب الأيام في
انتظارها . والكرار أول ما يشرنا باقواب شهر رمضان حين
ترص بجنياته أحولة اليايش . وتهفو نفسه للصيام ، ولكن
الأم تمتنع عن إيقاظه وقت السحور . وتسمح له بالصوم عدد
الساعات التي يستطيعها ، فتدرب عليه رويدا حتى شرع فيه
جادا في الساعة ومعه الصلاة . وتلاشت أيام الصوم في
مسرات لا حصر لها . السحور والإفطار والفوائيس واللعب
ما بين الميدان والحسين وترديد الأناشيد . في الأيام الأخيرة
من الشهر يمضي به أبوه إلى السكة الجديدة ، إلى مجلسي
جاكوبيل وجورس ، فيشترى له بدلة جديدة وحذاء جديداً .
يخفطها لصباح العيد ، ويتفحصها بخنان ، ويشمهما بوجود
متلذذا براحة الخلد والقماش الجديدين . وحلق الشعر
والحمام وأخذ الزينة الكاملة والانطلاق إلى ميدان الأفراح
والزمامير والأراجيح ، والكعك والغريبة والعدنيات وزيارات
الأقارب والأحباب . ومينما الكلوب المصري وشارلي شابلن
وماشست . أما عيد الأضحى فيشهد صداقة جديدة مع
الحزوف كما يشهد الغدر به في فجر اليوم المرعد ، إقطاره
شواء وغداؤه فنة ورقاق ، وفي تلك الأيام بدأ حب الله

يطرق القلب الصغير مع حب الحارة المليحة واهبة القبلات والملمين ..

ولذة الحواس أشمل من الطعام والحلوى . أول حضرة أطلت من تكعبة اللباب وأصص القرفنفل . والسترولى يشق طريقه فى حقول حدائق القبة يدفعه سائقه الحافى . الخضرة والأزهار تهب القلب فرحة طائفة ومناجاة عذبة والجداول توقظ ذكريات السروح . وروائحها الفاتنة عرفها أول ما عرفها عند تقطر ماء الزهر والورد من عزان المياه فى حمام البيت القديم . أما مسرة الأذن فحديتها يطول . تنهمر من الأفراح والليالي الملاح والقرونوغراف مرعدة تلاوة المقرئين وطقاطيق العوالم وأغانى عبد الحى حلمى والمينلاوى وصالح ومنيرة والينا وسيد درويش فيما سبق لم كلثوم وعبد الوهاب . ولكل مسرة موضع تعيش فيه وتبقى .

وسينما الكلوب المصرى متى وكيف ملكت الفواد ؟ . كيف انضمت إلى رصيد الحب والأحباب حكايات الغرب الأمريكى ، وحقة شارلى شابلن ، وقوة ماشست وجمال مارى بكنورد ؟ . سحر وحلم . حسيته أول الأمر حقيقة وأنه يوجد فى مكان ما وراء الشاشة فى خان جعفر أو حارة الوطنى . سلمت بعد ذلك بأنها صور ، ولكنها منقولة عن

وقائع حقيقية لا روايات خيالية . وددت لو أفضى العمر أمام الشاشة مع الأبطال . وعشقت مارى بكنورد ، وأرضاني تشابه سرراغ بينها وبين جارتي المليحة . وصدقت بكل حماس أن ولهم هارت اسمه الحقيقي على اللديان ، وأنه أصلا من باب الشعيرة ! . وحىء لى تجهاز عرض صغير بدار باليد ويضاء بمصباح غازى ويزود بشرائط قصيرة متزوجة من الأفلام فى غفلة من أصحابها ، فرحت أديره فى غرفة السطح الصغيرة التى أصبحت بفضلها مرنافا لينات الحى الصغيرات ...

وتقليد التجارب المثيرة لذة أيضا . الأب أول من قلدت والأم أيضا . وقيل ذلك فترة بسيرة ثم انقطع بالزجر . وسيدنا شيخ الكتاب ومقرعته ، ألف للتدليل حول رأسى كعمامة ، أترع على صندوق وتجلس الخادم على الأرض بين يدى ، أحاكى صوته وألوح بالعصا ، وألقى الدرس ، وأسمع وأعاقب آخذنا نأرى من كل ما لحقتنى فى يومى الثقيل . أو أغطفى الصندوق تملأه فيكون قبرا ، وأحاطبه كما يخاطب والدناى القبر : « السلام عليك يا أبسى والسلام عليك يا أمى » ، وأتلو ما تيسر ، وتترعج أمدى لذلك غاية الانزعاج وتهال على باللحكات . وأقلد الفتوات لاعبا بالعصا فى الهواء ، وأقلد المتظاهرين هاتفا بحياة سعد وسقوط الحماية ، وأقلد الباعة والعوالم وبعض الزائرات ذوات اللوازم الغريبة ،

وأحيانا أقلد « الرذح » الذى يصدم معنى فى الميدان ، ويهزنى ما أتوره من سخط أو إعجاب تبعاً للظروف والأحوال .

والجولات السعيدة فى مساكن الإحيرة والأخوات . تتطلق بنا من الحى العتيق إلى أحياء جديدة كالحلقات والسكاكيني والظاهر وغمرة ، فى مسكن ألقى رجلا غريبا ، وفى آخر أحد امرأة غريبة ، ولكننا تقابل عند الجميع بالحب والرحاب . وهناك المواليد الجدد ، يرقنون فى المهدي أو يجيون ، وأنا بالقياس إليهم رجل يبالغ الرشد . وتهال على القبلات والحلوى ، والأعب الصغار تحت رقابة مشددة . وتختلف درجات الحب بالنسبة إلى بين بيت وبيت ، قبيت بزواى لى وكأنه امتداد لبيتى فى ألقته وحرارته ، وآخر لا يخلو من شىء من التحفظ الذى لا يشعر به سوى . ولكنها بصفة عامة أسرة متماسكة متوادة متحابية لا أذكر أن نبت فى أرضها الخضراء شوكة واحدة ، وشد ما أحبهم جميعا كما أحبوني .

ودنيا الآثار العجيبة طفت بأرجائها المترامية قبل أن ألتحق بأية مدرسة . وعندما عدت إليها فى الرحلات المدرسية كانت عودة إلى أرض العصاب التى نقشتم رموزها فى القلب والخيال إلى الأبد . الخطوة الأولى بدأتها مع الأب ، ثم

وقعت الأم فى شباكها فصارت من طقوس تقراها . الأشرطة والمساحد الأثرية وبعض الكنائس وتكايا الصوفية ، والأهرام ، ودار الآثار الفرعونية والإسلامية والقبليية ، كم حركت من خيالى وأثارت من شجونى . وحديث أبى عنها موزج جدا وجاف . أما الأم فلا أدرى من أين حانبت بكل تلك الأساطير عنها . وأطول وقت قصيناها فى حجرة المرميات المخططة ، تنحنى فوق التابوت متفحصا للمومياة خنقوع وأسى . وأساءها :

— أهم أحياء ؟

فتقول :

— أموات من زمن بعيد ..

— هل أهلنا فى القبر مثلهم الآن ؟

فتقول بجديية :

— الله أعلم بحالهم .

وأسأل باهتمام :

— هل كلنا صنعوت ؟

فتقول باسمية :

— بعد عمر طويل إن شاء الله .

ولعل جوابها طمأن قلبى !

والصداقة من نعم الحياة الكرى . دائما وأجدا الصديق ، فوق السطح ، فى الميدان ، فى الحسارة . ومنهم العاير

والمقيم . من العابرين أقرباء ينزلون عندنا إذا جاءوا من الريف ، ومن أبناء العم والعمة . نلعب معا في البيت وخارجه ، وأكون لهم مرشداً إلى الحسين فيسيرون ورائي كالسياح - ونحن نقرقر اللب - من بيت القاضي إلى خان جعفر إلى الحسين والسكة الجديدة والغورية والصاغة والنحاسين والوطايط وقرمز والكبايجي وبين القصيرين وحرارة الشوام وقصر الشوق والسكرية ثم نفرج على المخاذهب عند الباب الأخضر . أما المقيمون فكثرة ترهق الحصر ، ولكن يتصفون باللطف والمسئلة في أغلب الأحوال . يجيئون السياح والجرى وراء عربات الرش ، وحكى الحكايات واليوم بالأغاني الجماعية ، يتميز بينهم بالأنقة أبناء دكتور العيون ، والشيخ بشير والد فانتقى . ولم يخل التحول من لقاء من نطلق عليهم أبناء الشوارع ، وهم رغم استنظام البالية وأقدامهم الخافية على قدر كبير من خفة الروح ، أما خرقهم للتقاليد المرعية فلا حدود له ، يرددون الأغاني الفاحشة فتشعر بالقفطرة أنها ترشح من يفظلها للنار وبس القرار . ويوم يمر دون لقاء مع أولئك كوهؤلاء لا يحسب من العمر ..

* * *

حتى تلك السن للبكرة جدا لم نخل من الحرمان حول الجنس الآخر ، والانسياق مع جاذبية المغامرات الحافظة ، واكتشاف

كنوز الفواكه الحرمية . ثم في حذر يفضح الشعور بالإثم ، والوعي لحد ما بالذنب . ودعك من فانتقى التي تتحائل في حصنها كالحلم ، فهناك حجرة السطح وبئر السلم يشهدان حوادث مثيرة وغير تادرة ، فضلا عن أن سحر النساء ينقث ندائاته الغامضة في عمق وسرية وبلا انقطاع ، وغير مفرق بين غريبة وقريبة ، بافعة أو ناضجة ..

* * *

فزة خاطفة تبدو لعين الحالم خطوة أولى في طريق بلا نهاية . خطوة تمهيد ليس إلا ، ثم تتلوها المدرسة والمراهقة والشباب والنضج والشبهوخوة ، الحياة بكل أبعادها المتاحة . لكن مهلا .. هي فزة قصيرة ولكنها تحمل أجنة احتمالات لا تعد . تشهد مولد الأسئلة الخائلة ، والمحب ، والجنس ، والصدقة ، والقيم ، والحياة ، والمسوت ، في رحاب ذى الجلال . الحان أساسية تنمو وتنشع مع العمر ، تتلقى من البحر الثرى أمواجاً متنافعة وآفاقاً مزمزمية . توزعنا الأهواء والتأملات ، الحلم والأفعال ، الانكماش والانفصاع ، ولا نتخلى عن الرغبة الأبدية في الانتهاء إلى مصباح يضيء لنا طريق المصير ..



رأيتني في رحلة مرحلة من رحلات الزمان الأول . يبدو أن اليوم من أيام الشتاء اللطيفة ، فالسما صافية والشمس حانية . توافدنا على الميدان كما نواعدنا رغم الموت الذي فرق بيننا ، بأيدينا حقائب صغيرة من الخوص المحلول الملون ملأى بالأطعمة والأشربة . زقرقت حناجرنا بالضحكات وعبرنا حدود الميدان الشرقية المقضية إلى الحلاء وعيون المياه وواحة التحيل والحناء . كالعادة يمضي النهار بصحبة الطعام والشراب والسمر والطرب حتى يتهكنا السرور ، ثم تعود بالحقائب الخاوية إلى الميدان عند الأصيل . الآن الشمس تتحدر نحو الأفق ، ولقحات من البرودة تهب ، ولكن في دعامة وعلوية . تبادلنا تحيات الوداع ، وتفرق الأحباب بين الطرقات المقضية إلى بيوتهم . تمهلت بعض الرقت مطعمنا إلى قرب بيتي من الميدان . وجدت نفسي شبه وحيد لندرة العابرين آخر النهار . وانجهمت نحو طريقتي التي تصب في الميدان كسائر الطرق . سرت وأنا في غاية من الشبع والرضا بين صفين من الأسواق والوكالات والورش ، للبيع والشراء

دخان الظلام

والصناعات والحرق ، فيه تقتل أصوات العملاء بأزيز
الموافد وبق المطارق . لا يسكت ضججه أو تتلاشى حركته
إلا بعد هبوط الليل وذهاب الحافلات واستقرار النقود في
الجزائين . هو الشارع الذي حلمت فيه بالنضج والعمل
وأسعدني كثيرا التجول في جنباته . ولما شارفت نهايته
دهمني منظر سد من الأحجار أغلق فخرجه بأحكام . ذهلت
ورغضت وتسايلت متى قام هذا السد ؟ ومن الذي أقامه ؟
ولأى غاية صيغته ؟ . وتلفت حولي فلمحت عند زاوية السد
اليعنى شخصا يجلس وراء مكتب خال إلا من تليفون . ولما
استقر بصري عليه تسمرت في مكاني من هول ما رأيت .
طالعتي وجه غليظ بصورة تتحدى أى خيال ، وفي موضع
الأنف ينطلق خرطوم قصير على هيئة خرطوم الفيل ، تحت
عين واحدة غائرة تستقر في منتصف الجبين . تراجمت فزعا
وأنا أتساءل : أهو إنسان أم حيوان ؟ وأى نوع من الحيوان
يكون ؟ . وأرى الناس منهمكين في شعرهم لا يعرفونه
التفاتا ، فملكتني الحيرة وداغلتني خوف من المكان كله .
وطويت حيرتي في صدري وانحصر تفكيري في النجاة
بنفسي من هذا الشارع الذي توهمت خطأ أنه سيبنى إلى
بيتي . ووجدتني مرة أخرى في الميدان فصادفتني عابر سبيل
فأعرضت طريقه مستغيثا به . أشرت إلى الطريق المسدود
وسألته :

— ماذا يجري في هذا الطريق ؟

ولكنه حدثنى بحق لاعتراضى سبيله ، وهتف بي :

— عن إذنك ، لا وقت عندي للكلام الفارغ !

وخاتني جانبا ومضى . وبدوري لم أعد أفكر إلا في
العودة إلى بيتي مزجلا أى شيء إلى حينه . لا شك أن
الرحلة أدارت رأسى فلعل طريقى هو السالى . أية دهشة
ستدرك الأصدقاء عندما أروى لهم ما رأيت . وفي الحال
ولجت مدخل الطريق الثانى . إنه أضيق من الأول . لم أستدل
بلمح من ملامحه على أنه حقا طريقى ، ولكنى لم أعد عن
السير لارتياي الطارئ في سلامة ذاكرتى . وهو شبه خال
أيضا . أحل تقوم على جانبه مقاه صغيرة متباعدة ، ولكن
لا يكاد يرى أحد في ساحته . وسطعت من مقاهيه روائح
غريبة نفاذة ومؤثرة ، وتراعى الخالسون وكأنهم لا يسمعون
ولا يرون ولا يشغلهم شاغل أو يربطهم بالحياة رابط .
أوسعت الخطا هربا من قلق زاحف . ولما دنوت من النهاية
تسعرت قدمائى للمرة الثانية . سرت الرعدة في أوصالى ولم
أصدق عيني . إنها حوقة من الهياكل العظمية ترقص رقصة
جماعية شعبية . إنه الموت يرقص أمام عيني بلا موسيقى
تصاحبه . عدت جربا قبل أن يغشى على . ماذا جرى
للدنيا ؟ . وكيف أعثر في هذا الضياع على شرطى لأستجدد
به ؟ . لأذهين إلى قسم الشرطة قبل ذهابى إلى بيتى إذا
تخلصت من ورطتى الخائفة . ولم يتخل الميدان من عابر
أو عابرين ، ولكنى تذكرت الدرس القاسى الذى تلقينته على

يد الرجل الأول ، بالإضافة إلى أننى لم أعد أتق في شيء . لم
يعد لى من هدف أهم من الرجوع إلى بيتى . وهذا هو
الطريق الثالث فلأجربه وأمرى لله . إنه على أى حال طريق
حتى تتردد فيه أنفاس العشرات من البشر . ربما يكون طريقى
الذى ضلته . منه تترامى نفايات الباعة على كل ما يؤكل
أو يشرب . الزبائن يقبلون خفافا وينهون مخلصين بالقراطيس
والأكياس واللفائف . سرت مسرعا بشدتي شيء من الأمل .
ولكن ماذا أرى يا ربى ؟ . من الزبائن من يذهب وهو يجفف
دموعه . أو من يتلوى كالمسوع صارخا . أو من يرمى
بجمرة دست في قرطاسه ، ثم يمص أصابعه ليسترد . تأملت
وتشايحت ولكنى لم أتوقف . لم أتوقف حتى رأيت في نهاية
الطريق يباع لحمه رأس برص على طليته مجموعة من البرص
الآدمية . نددت عنى صرخة فزع . انتبه البائع إلى وراح
يحمق في رأسى . ارتعدت أوصالى ووليت هاربا لا ألقى
على شيء حتى وحدثنى في الميدان . ربه .. هل جنت ؟ .
لم يبق إلا الطريق الرابع وهو الأخير . فما الخيلة إذا خاتنى
الخط في أيضا ؟ . وهتفت بصوت جهور :

— ماذا حدث للدنيا ؟

وإذا بصوت غاضب يصيح بي :

— أفرعتنى لا ساعلك الله !



رئيس الميدان خالبا قبلها هذا ، ولكن شعلت حباته كأنهاج وفورة

ونظرت نحو الرجل معتذراً ، وأومأت إلى الطريق الأسير
قائلاً في توسل :

- لا تؤاخذني ، إنني مرهق وفي حاجة إلى رفيق .

فنظر إلى بارتياح وقال :

- آسف ، فتوكل على الله ..

وابتعد عني وهو يتلفت في حذر . لم يبق إلا أن أحرب
حظي . المقيب يهبط ولا راد له . والطريق ليس بطريقتي
ولكن بحسه أن يوصلني إلى العمران . وهو شارع كبير
ومثير ويتسم بالفخامة والرونق . ويمكن أن تسميه بشارع
المقاهي الفاخرة . وأسماء مقاهيه المرسومة بالمصابيح الكهربائية
تطلق بالصراخ والصدق والتحدى . مقهى النشالين ، مقهى
النصابين ، مقهى القوادين ، مقهى الرشوة الوحيد . لأول
مرة أتسم . ليكن من أمرها ما يكون . اللهم أن أرجع إلى
بيتي ، ولتذهب المقاهي عن فيها وقحتها المعلقة بلا حياة إلى
الجحيم . مضيت في حطا تدفعها للهفة والأمل . ولأول مرة
أرى في نهاية الشارع ما يطمئن القلب ويسكن الخاطر .
رأيت قوة من رجال الأمن تحت قيادة رجل مهيب . لم
يساورني شك في أنني بصدد هجمة حازمة هدفها التأديب
والتلطير . وصحت في حذر :

- ليحفظكم الله ، هل علمتم بما يجري في الطرقات الأخرى ؟

ولكنني تلفتت وابلًا من نظرات باردة جافة منيرة بالويل
والشر . وخيل لي في ذهول المباحث أن ثمة تحقير لإلقاء
القبض عليّ . وداخلني شك في هويتهم ، فوليت الأدبار

جرىا بغير توقف غير غافل عن أنه لم يبق لي منفذ جديد
للخلاص . وبلغت الميدان والظلام ينتشر . غرقت في مستنقع
الخيرة ولا طروق نجاة معي . وليس الميدان خالياً فيما بدا
ولكن شغلت حنياته أشباح وفيرة ، وملأت حوه همهمات
غامضة . ثم نددت عنها هتافات غابية في التضارب
والتناقض . غامضة متوعدة متحفزة للقتال في الظلام البهيم .
استشعرت الخطر وما من سلاح معي سوى حقيقتي الخاوية .
من أين جاء هؤلاء جميعاً ؟ . وماذا يرومون ؟ . أهم أصدقاء
أم أعداء ؟ . من الخلاء وفدوا أم من الشوارع الوحشية
المعريدة ؟ . وتخلل الحشاش أصوات من نوع آخر . أغاني
خليلة وأناشيد دينية وموسيقى عسكرية . وضاق صدري
ضيقاً فأوشكت أن أختنق . وركبتني شعور بالضيق
والخسران والقنوط . من شدة غيظي وجهت بجماع قبضتي
ضربة إلى أم رأسي .

* * *

وفجأة تلاشى الجحيم فيما يشبه المعجزة . تلاشى فجأة
وبلا تدرج . هطت اليقظة من مملكتها الحرة بالسماء ..
يقفلة مضيتة مفعمة بالعبودية والسلام والطمأنينة ، مرحلة ،
مرحلة ، سعيدة تنضج بالوردة والهناء . مدتت بصري نحو
النافذة فرأيت الأفق يزدهر بخديقة الشمس المشرقة .

ألعب تحت شجرة البلخ عند الأصيل . مغرورة فسي
موضعها من قبل أن يشيد بيتنا بزمن طويل . عندما تهب
الريح بالأطم غصن من أغصانها مشربتنا . وتظل أمي على
من حين لآخر كيلا أبتعد عن الميدان . لما أكون وحيداً أغنى
أو ألاعب نفسي السهجة . ذات يوم تهبط على غمغمة
مملوطة منغومة فيهتز لها قلبي . اليمامة تبعث لحنا ، أعرف
شدها ، وأحبها حباً جما . أرفع رأسي المغطاة بظاقيبة
مزركشة فأراها مستقرة ناعمة البال عند أصل غصن . لها
لون الدوم وفي وداعة السمة ووحيلة مثلي ، ولكنها لاهية عن
حي . أترجم في شغفي :

يمامة حلوة ومين أجيبها

طارت يا نينة عند صاحبها

اليمامة

إنها من أغاني المفضلة . ترى أحب اليمامة لافتتاني
بالأغنية أم أحب الأغنية إكراما لليمامة ؟ أقول لها بتوسل :

— اهبطي .. لا تخافي .. عندي الأمان كل الأمان ..
عندما أذهب إلى الكتاب أودعك سريري الصغير ..

يلو أنها لا تعرف لغتي . سارحة في دنياها الخضراء .
ولسبب ما تطير بفته فتقطع نصف الميدان ، ثم تحط على
سور الزاوية الصغيرة على كتف من قبة الضريح . أتدفع
جاريًا تحتها لجلهاني المقلم وصندل العتيق غير متبه لما تحت
قدمي . لا فكرة لدى عن صيد اليمام ولا بحركتي إلا الحب .
أقف أسفل سور الزاوية على قيد أشجار من المدخل . أبتغي
الوسيلة إلى بلوغ المرام بتلاوة الفاتحة . لكن من المؤكد أنها لا
تأبه لي . أو أن الحذر يخالط هواجسها . لا تريد أن تمكث
فوق السور حتى أسترد أنفاسي فتطير مرة أخرى . أجرى
تحتها وأصوات حشنة تهتف بي « يا ولد .. فتح عينك » .

وتحط اليمامة على حافة شرفة مدرسة خان جعفر . أقف
تحت شرفة المدرسة . بصرى متعلق بها وأنسى تماما تعليمات
أمي المشددة . وأنساءل :

— ماذا يخيفك مني ؟

شد ما تحزنتي لا مبالاتها . فضلاً عن أنها لا تريد أن
تستقر على حال . فما هي إلا لحظات حتى نظير معاً ، هي
في الفضاء وأنا فوق الأرض الغالبة عن بصرى .
وأستيقظ على فرقة سوط فانتبه إلى قدوم كارو أو شكت أن
أصطدم بها . أتفادى منها على عجل ، وسباب الأسواق
يلاحقني . عيناي مشدودتان إلى محبوبتي حتى تهبط فوق غطاء
دكان لبيع البقالة والسجائر والخمور . أقف وأنا ألهث غير ملتق
بالأى إلى الزبائن . ما أطول المسافة التي قطعتها ولكن طويلاً
نفسه يحرضني على الاستمرار . ربما يساررتني شيء من
الضييق والكدر ، ولكن الأمل لا ينقطع . وأقول بعناد :

— وراك .. وراك .. مهما طال الزمن وراك ..

سوف تحاسبنني أمي على احتضاني ، ولكن سرعان
ما يتلاشى غضبها عندما ترى اليمامة في حضني . وها أنت
تطيرين للمرة الرابعة يا قليلة الرحمة فأجرى أنا كالجنون في
إترك . أكاد أعر هذه المرة بشيء فوق سطح الأرض ولكن
الله سلم . أتبعها بإصرار حتى تهبط فوق حافة شباك
المستشفى . الدنيا زحام ، عشرات يدخلون وعشرات
يخرجون . يختلط الدعاء بالشكر بالبكاء . أغرق في تيار
البشر ولكن عيني لا تتحولان عنها . يجيل لي أنها ترامقتي ،
إنها الآن تعرفني أكثر من أي وقت مضى . وأسألها :

— ألم تشعبي من الطيران ؟

لكنها تطير للمرة الخامسة دون أدنى اكتراث بي . أطلق
ساقى في عناد يقهر أي تعب . ووجهة تنزل قدمي في نقرة
فأندلق على وجهي . أنهض مسرعاً متوجعاً والدم ينز من
ركبتي . مزقتني ألم قاس ، فأفحم في البكاء كالأطفال .
لكي أنظر من خلال الدموع إلى أعلى . أحس بعوج في
كاحلي بمنعني من الجرى . وتحول عيناى في الفضاء فلا

ترى أثرا لمحبيتي الطارية . أنتبه إلى ما حولي فألمس العتمة في
الخلاء المحرق بالمدينة . تختفين بعد مشوار طويل مبلل بالعرق
والدموع ؟ . ويتبين لي أن الخلاء ليس بالغريب عليّ ، فطلما
أقطعته حاملاً الخوص بصحبة أمي وشمس في طريقنا إلى
المقابر . ولم أجد من الخلق إلا أحادا عابرين . وها هو المساء
يهبط بكل جلال .



رجل حساد لا موضع فيه للمرح . رجل يحب الكمال بإفراط مهلك . وقيل عنه أيضاً إنه وحش ، لم ينض قلبه ببضعة رحمة واحدة ولو على سبيل الراحة . يوم مات انتشر الخير في الحسى كالشعاع الحار مفجراً مزيجاً من الدهشة والرهبة والإرتياح . وثارت شكوك حول حقيقة موته ، فتهاشم جيران بأنه قتل . وتساعد الشمس حتى شرحت الجثة قبل دفنها . وثبت أنه مات كما يموت كثيرون بنزيف في المخ ، ورغم ذلك ألصقت بابه تهمة قتله ، واشتهر الشاب في كل مكان يحمل فيه مقاتل أبيه ، وحلت به اللعنة في هالة من عطف كبير . ويهتف الشاب :

— كل واحد يعرف أن التهمة كاذبة ، ولكن كيف أتفع اللعنة !؟

(القرار الأسير) - ٣٣

القرار الأخير



تلقى أول لكعة في حياته من حيث لا ينتظر

- ٣٤ -

ألم يلکم أباه فطرحة أرضاً ؟. ماذا بهم بعد ذلك أن يموت الرجل من أثر اللكعة أو يموت حزناً وكماً ؟. وعلى دهول الشاب وكآبته فإنه لم يعلن ندمه ، وصارح كل مخلوق بأنه كره أباه حياً وميتاً . كان رجلاً يستحق الموت . قيل إنه عشق الكمال ، وأصر على أن يتعلم بالكمال كل من خرج من صلبه ، فمن كان ذلك الرجل الذي هام بالكمال لحد الجنون ؟. كاتب حكومي لا أكثر ، الابتدائية غاية تحصيله ، قرأ بعض كتب الرواد فرؤدته أحلام بأحتحة وبلا أقدام . أفلنت منه الفرض وذاب في الزحام ، فأراد أن يجعل منا أنا وأخي الكبير وأختي أمثلة حية للكمال البشري . صدقوني لم يكن إلا مجنوناً . لا حيرة له على الإطلاق بالتربية ، ويؤمن بأن القوة هي الوسيلة السحرية لخلق المستحيل . كم من مرة صب زوبعة غاضبة على أسي لأن طبق طعام سات دون غسل ، أو خصلة من شعرها الكستنائي تسربت من حافة المنديل . أخي الأكبر جلد بقسوة مرات لأن تربيته تأخر عن الأول ، وأختي الجميلة تعرضت لنفس العقوبة دون اعتبار لرقة أعضائها وتوفر نصحها . وهو يجلد إذا جلد بوحشية المتعطش للانتقام لا بحكمة المرابي الزاجر . ولم يكن يتسهم ،

دائماً يعلوه الحزن وكأنا نتوقع قدوم موت وشيك . عشنا في رعب ، عشنا بلا حب ، تبادل نظرات التشكي ، وأنا تتأوه باكية وتصيح :

- أنت تهلك الأولاد ، ربنا لن يسامحك أبنا ..

فبرد عليها بصوت كالرعد :

- اسكتي يا داعية الاخلال .

وقالت له مرة :

- أنت أسوأ أب .

فضاح بها :

- ما أنت إلا امرأة سوء .. والموت عندي خير من الضياع .

وزاعت أخبار بيتنا بين البيوت . قالوا إن في بيتنا محكمة تفتيش منعقدة بصفة مستمرة . ولم يكن لديهم ما يأخذونه عليه كحمار . فهو يشيع الأموات ، ويعود المريض ، ويرق مهنتا في الأفراح . لكنه لا يذهب إلى المقهى ، ولا يوثق علاقة بأحد ، ولا صديق له . يؤدي فريضة الجمعة في المسجد ، يتبادل بعض التحيات في تحفظ ، وسرعان ما يرجع إلى مسكنه . وتجراً عليه جوار يوماً فاعترض سبيله

ليعترف له بأن صراخ أبنائه يكدر صفو حياته ، وأن التريبة تقوم على الحزم والرحمة معاً ، ولكنه عبس ومضى مقاطعاً الحوار . وبلغ حزننا مداه عندما قبلت أختي زينة غير متكافئة لا لشيء إلا أن تهرب من قبضة أيها الخلدبية . لا السن مناسبة ولا الشكل ، ولكنها وجدت في حوار الكتيب النجاة . وذهب أخي الأكبر ذات يوم ولم يعد . اختفى من حياتنا فلا هو حي ولا هو ميت . وتحطم قلب أمي . أما أبي فقد ثار غضبه طويلاً ، ووجم أحياناً ، ودارى هزيمته بكلمة فظة انطلقت من فيه كالحجر ، صاح :

- في داهية !

هل يتغير سلوكه مع الابن الأصغر ؟ لا يبشر وجهه بأى خير . والولد على صغره لم يسلم من الجلد . ولكنه استعد للدفاع بطريقة تلقائية . راح يدرج جسمه تدريباً رياضياً ويتمرن على الملاكمة . واتسع له المجال في ذلك داخل المدرسة وخارجها . واصل استعداده لمواجهة يوم أسود أغمر . والرجل رغم كهولته متين البنيان ولده التقاليد بقوة متجددة . والولد من ناحيته حزين ، على أمه وأخته وأخيه حزين .

وعمل ألف حساب ليوم ظهور النتيجة ولكنه انتظره بعضلات متوترة وقبضة منترسة . كرهت بسببك العلم والحياة . أثقيلك تماماً وأنت تنتظر قدومي . إليك بالأخبار . قلت دون تحية :

- سقطت ..

صمت وقتاً قليلاً ثم تسأل :

- هل تعرف ماذا يعني هذا ؟

فقلت ببرة حادة لم يسمعها من قبل .

- لا بهمني أن أعرف !

هب قائماً أهر البصر . أقبل نحوي بسرعة وبكل ثقله .

تلقي أول لكمة في حياته من حيث لا ينتظر . تهاوى وهو يشهق فيما يشبه الإغماء . أمي صوتت . لم أتبس بكلمة .

غمرني شعور باليأس والتحدى . جاءت أمي بقارورة

كولونيا وجعلت تدلك وجهه . ساعدته على القيام ومضت

به نحو الفراش وهي تصيح بي :

- أنت مجنون وملعون .

وانفجرت باكية . فكرت في الاحتفاء مثل أخي ولكن موته لم يمهلي . وثبت أنني لم أقتله ، ولكنني قاتل أبيه في نظر الجميع حتى المتعاطفين معنا . أورتنا موته هما لا يقل عن حزنه حدة . وطلقت أختي ، ورجع أخي دون أن يستقر في عمل يليق به ، وماتت أمي ، وكنت الوحيد الذي أتم تعليمه وتوظف ، ولكني أتعس الجميع .

الخنافس

أول ما ترددت الشكوى في المنزل رقم ٤ . ومنه انتقلت إلى رقم ٩ ثم إلى رقم ٢٢ . ولم يكن يمضي أسبوع حتى انخرط الحى كله فى ترديد الشكوى . يعثر شخص على خنفساء ، ساكنة أو متحركة ، فيهرسها دون مبالاة . فى اليوم التالى يرى اثنين وربما ثلاثاً . ما هذا الوافد الجديد ؟ بل تصبح ظاهرة تثير الضيق والحيرة . ويشملها السر فى المقامى .

- لا تعرف منها ولكن لم تظهر بكثرة على غير عادة ؟
- ولا تتسوا ما يقال من أنها تجذب وراءها العقرب ..
- تواصل القتل بلا هوادة ، سهرت أعين الرعاية حول الأطفال والصغار ، وباتت الخنافس الشغل الشاغل والحديث الغالب . واستمر تكاثرها ، وانتشر الخسوف منها ومن العقارب . ورجع يباع جوال ذات مساء وقال :
- إنهم يطمون الأحجار فوق الجبل بالديناميت ، ومن الجبل تنهال علينا هجرات سكان الجبل باذنة بالخنافس ..

- ٤٢ -

ثم واصل بعد لحظة صمت :

- وتبعها بعد حين العقارب والحيات !

إنه قضاء يتحدى الحى ولا يد من دفاع من نوع ما . وانجهدت الأموال أول ما انجهدت نحو المحافظة . وفى الحى موظفون ومتعلمون فما علينا إلا أن نجس البيض ، والله المستعان . لكن الشكوى لقيت من المحافظة استخفافاً وسخرية ، أتريدون أن تعطلوا المصلحة العامة خوفاً من خنفساء ؟! ، أما ما يقال عن العقارب فما هو إلا خرافة من خرافات الأولين . هذا والخنافس تكاثر والقتل يستفحل حتى حلف الحلاق أن جثت الخنافس جاوز بالأمس المائة فى مسكنه . وفازت غرف النوم بعناية مركزة ، وعرضت للفتيش الدقيق الحشيات والأغطية والوسائد ، فما يحتمل أحد أن يستيقظ من نومه على زحف خنفساء فوق جبينه أو اندسامها بين شفتيه . وقال رجل :

- لولا أزمة المساكن ما بقيت هنا يوماً واحداً .

وقال آخر :

- سكنى المقامر أفضل وأمن ..

- ٤٣ -

وراجت تجارة المبيدات ، وانهارت الامتشارات على الصيادلة ، أما جموع الخنافس فلم ترتقب أو يعثر بها ضعف ، وانتشر لونها فى مواقع فصبتها بالسواد ، إضافة إلى الرائحة الكريهة ، وعندما نجى العقارب فقل علينا السلام . وحل اكتئاب عام كأنه غبار حملة الحماسين ، فقد الناس المرح ، واشتدت حساسيتهم لأقل سبب ، يتشاجرون حتى مع أنفسهم ، وفى البيوت توترت الأعصاب ، وتعددت أسباب النزاع ، وكثر الخلف بالطلاق ، وضرب الصغار لأنفسه الفعال . وكل شخص قال إن العقارب آتية لا ريب فيها . يا لى ما سر البلاء ؟ أهو الديناميت ؟ ! أهو سوء النية ؟ ، أهو غضب الله ؟ . ولكن ما جدوى التخطئ بين الفروض وها هو ديناميت الحكومة لا يسكت دقيقة واحدة ؟ . الحكومة وراء الخنافس ، وراء العقارب ، لا تعاني مثلنا ، ولا تسأل بنا ، تقيم فى الأحياء الآمنة بعيدا عن الديناميت والجبل ، وثوكنا لمصيرنا . أى حياة هذه ؟ . لا عمل لنا إلا قتل الخنافس فى ضجر وقرق . وفشحن الصنائع بالجنث عمل أنقل ، والتخلص منها أمر محير . كأننا لم نخلق إلا من أجل مقاومة الخنافس . واقترح رجل فاضل أن ينقل ميدان المعركة

إلى الخلاء القاصل بين سفح الجبل ومشارف المساكن .
وتحس كثيرون للفكرة ، فانطلقوا إلى الخلاء حاملين العصي
وانقضوا على الجموع الزاحفة بهمة وتصميم ، وتواصل
العمل حتى هبوط العتمة . ولكن ذلك كله لم يقلل من
انتشار الخنافس في البيوت ، ولا خفف من شخاوف النساء
والأطفال ، بل راحت الخنافس تنسلل إلى الطرقات والمقاهي
والدكاكين ، ويعثر عليها مرات في قوارير الحل والزيت
والمربطات أو مدفونة في حشو العيش والطعمية . الحياة
ضجر وقرق وترقب لخوف داهم . ودعا قوم للهجرة وليكن
ما يكون . وحرص آخرون على قتال طغاة الديناميت . وقال
ولي صالح إنه لا نجاة لنا إلا بالبحر . وسعى من سعى إلى
الهجرة . وخطط من خطط للقتال . ومال كثيرون لفكرة
البحور لسهولتها وسحرها . والبحور متفرق والمبخره جاهزة
ولكن الولي اشترط الطهر والنقاء فيمن يقوم بالبحير
وإلا وقعت اللعنة وحلت العقارب والحيات مكان الخنافس .
وكلما عرض الأمر على رجل مشهود له بالطيبة حفض وقال
الكمال لله وحده . وبدا أسهل الحلول وكأنه أصعبها . حتى
جاء بطفل في الرابعة من عالم البراءة ، فطرقوا وسطه بعلاقة

البحرة النحاسية ، وحمله أبوه فطاف بالبيوت والأماكن .
وكف الناس عن المقاومة أملا في البحور ولكن الخنافس
تكاثرت لدرجة تعذرت معها للمقاومة . وهجر الناس بيوتهم
إلى الطرقات وهم في كرب ما بعده كرب ، وانهاالت
الاتهامات على البحور والولي ، وحتى الطفل لم يتج من
تهمة تناسبه . واختلطت الأمور وذهل الناس عن الحقيقة .
واردادوا ذهولا والأيام تمر . ولا أحد من المعاصرين يدري
كيف انكشفت الغمة وثلاشي الكابوس . أجل قد رجع
الناس إلى المساكن ، ورجعت المساكن إلى الناس ، ولكن
كيف ؟ يهمس قوم إنها الهجرة . ويشيد آخرون بقتال
الأبطال . ويتغنى فريق بشذا البحور .

وراء العامود

بكاتيفريا الفئلق الكبير للث فراراً من حر يتأجج في الشوارع .
ما أجل الجو للكيف عقب احتراق وعرق ، وثمة مكان خال وراء
عامود ضخم مطعم بالمرايا والأصداف الملوثة ، فأسلمت نفسي
لمتعد لين . يكاد يخلو المكان ، سوى ذلك الركن الغربي
تتهادى منه ضحكات رزينة وروائح السيجار . شنتهم من
ناحية العامود جالسين حول مائدة معدنية اصطفت فوقها
أقداح المربطات . عرفتهم رغم أنني لم أراهم من قبل ، يدل
عليهم مظهرهم الرائع ، وسمات مشوكة كاللغد المتلسن
والسيجار والنظرات الهابطة من عل . ورغم طفرة الزمن فهم
يتنادون بسعادتك ومعاليك ، وانعقد فرق هاماتهم نصر
مؤكد . تجول عيناى فى أرجاء المكان تابعة الفتيات خوات
السرات الحمر ومن يؤدين الخدمة ثم يرجعن إلى الركن .
فوضح لى هذه المرة أن صاحبي « الأستاذ » منلس بينهم
كأنه أحدهم . يقينا هو ليس منهم ، ولكنه حائز لرضاهم .
يكتب إذا كتب فى حياء ، متناولا طرائف الشرق والغرب ،

ولكنه عند الحديث يضع الكلمة المناسبة في المكان المناسب ،
فما من طائفة إلا وتظنه ولها . أراهن على أنه يروي نكتة ،
صوته غير مسموع وإشاراته دالة ، وهم يصغون باهتمام ، ثم
تنهادى الضحكات الرزينة . هم في حاجة إليه وهو في
حاجة إليهم . انبسمت لكثرة ما تذكرت . تلك الليالي
الحافلة بالكلام والسر . إنه الآن ينافق . يقوض أبنية لهداهن
أحلامهم . أنا أيضا أجلس في مجلسي الرطيب لأحلم . النوم
العميق يجد في الأحلام مفتاح الفرج . أما في مجالسنا المرحية
فقد استحق الأستاذ لقب مؤرخ العصر ومغشى الأسرار .
لكنه صادق معنا وإلا ، كانت تلك الأكدار التي تسيطر بنا .
إنه يجمل الشائعات إلى حقائق بمشاهداته وأسانيده وأخباره .
مؤرخ خبير بالصفقات والسلب والنهب . بل لعله في أعماقه
متمرد أو ناثر ، ولكنه يؤثر السلامة والريح . إنه يعلم أن
ذلك الركب غاص بالموبقات ، ولكنه أثر أن يتعلق بذنبه ولو
على كره . في مجالسنا فقط ينطلق على سحبه ويكفر
بالكلام عن سلوكه . يسأله أحدنا :

- حتى متى تمضي الأمور هكذا ؟

فيقول بحماس عابر وحقيقي :

- حتى تلفظ السلبية أنفاسها .
- لكننا شهدنا أكثر من ثورة ؟
فيقول ضاحكا :

- لي عمة لم يشف كيدها من أوجاعه حتى أجرت به
ثلاث جراحات !
وأمد بصري نحو ركنهم وعاصفة عوج في صدرى .
ألا يفكرون في العواقب ؟ أم هو قدر يعمل الجميع إلى غاية
مرسومة ؟ . وأنسلى بالنظر في قعر فنجان القهوة الفارغ كأنما
أشرف البخت . أرى رسما في راسب التوتة يشبه القاطرة .
أتذكر ما يقال عادة . « أمالك سكة سفر ! » . ورأيت
الركن يتحول إلى حجرة هادئة للتدخين معزولة تماما عن
الفندق مغلقة الباب ، والسادة هائمون بين الاسترخاء
والسمر . ولكن الباب فتح . وانسل منه شاب غريب . أغلق
الباب ، وراه ظهره ، وتوجه نحوهم في توتر وتحد . تحيل
طويل ذو سرورال رمادي وقميص غامض اللون ، معروف
الوجه شاحبه زائف البصر . ترتفع نحو الأضواء مستطلعة ، ويسود
صمت داهم . لا أحد من السادة يعرفه أو ينتظره ، لعله جاء لمقابلة

الأستاذ ، المهم ألا تطول الزيارة . يدس الشاب يده في جيب
سروراله ثم يسدد نحوهم مسدداً ، يقول :

- حذار .. أي حركة متعرج ورائها الموت ..

حملقت فيه العين . أي مفاجأة . كفنا عن التدخين .

مجنون ؟ ما أكثر المجانين في هذه الأيام . لكن الحياة ليست

بالعب . وتساءل أحدهم :

- أي شيء بيننا وبينك ؟

فنهفت :

- كثير .. كثير .. للأصمف ليس في للسلس ما يكفى من وصلص ..

فقال الرجل بحرارة :

- لافا ؟ .. تمهل وفكر .. أنت تهذر حياتك وأنت في عز الشباب ..

- حياتي مهذرة .. الحياة مهذرة ..

استحوذ عليهم رعب شديد وقال صوت متهدج :

- فكر أنك قد تقتل بريئاً ؟

صاح بعصية :

- يا أرغاد .. يا أرغاد ..

ووجه الشاب بصره نحو الأستاذ وسأله :

- ألا يستحقون الموت ؟

فخرج الأستاذ من جلده وقال :

- إنهم يستحقون الموت ولكنك لا تستحقه !

فتساءل متهكما :

- متى حظيت بحياتي بكل ذلك الاهتمام ؟

ثم واصل بإصرار نهائى :

- ما دمت لا أستطيع أن أقتلكم جميعاً فسأقتل أشدكم

إجراماً !

اعتقد كل واحد منهم أن حياته انقضت .

على غير توقع من أحد حول مسدسه نحو الأستاذ . وأطلق النار .

شعرت باعياء . أشعلت سيجارة . ألتفت على الركن نظرة من

جديد . الضحك لا يتوقف ولا السمر ، ولا الأحلام .

تيزة أم عزيز

ذات قامة طويلة متينة البنيان ، ووجه أصفر حنّاب رغم طوله وحدة تقاطيعه ، وعينين سوداوين نافذتين ذاتي كحل رباني وفي غمازة اللحن وشم . لا أذكر أنني رأيتها في أي فترة من العمر إلا مقبلة في ضجة من المرح . كأنها محترفة المزاح في ليالي السمر . أما بالنسبة إلى فهي دائماً تيزة أم عزيز . لم تتغير . في عيني لم تتغير أبداً . حتى بعد أن تغير كل شيء فيها وجولها . الضاحكة ، اللبدعة من كل لفنة أو موقف صورة كاريكاتورية حية . حتى حين لم تعد تملك إلا الجلباب المرقع الذي يسترها ولا تصيب من غذاء الدنيا إلا اللقمة والدقة . أصلاً من رشيد جاعوا ، بلد الاقتصاد والعمل والنكتة . بصحة ابنها الكبير احتضرت إقامتها . أما الابن الآخر المزارع هناك فقد ضاقت بها زوجته . أليس كل مكان بيت العز طيباً ؟ ثم إنها صاحبة أرض ، مستورة ، إذا حلت بمكان جرت فيه البركة . ويكرهها ما شاء الله مخلّف بالمكالمات يسر الخاطر ، يدخن ماتوسيان ويفسر

والأممك . وتعلو هممتها في الولاكم يشهدا عملاء ابنها فيلتهمون الطعلم ويشون على صانعه داعين لها بطول العمر والعمار . كل شيء حسن ويشربها هو أحسن ، ولكن ماذا أفراك بالقمطار يا عزيز ؟ ولم تستحيب لئلا تهاكر بعد ان أنتجت من الذرية ستة ؟ وكيف غاب عن سكرتك أنه مغامرة لا تصلح لأهل التجارة ، أليس لكل شيء ميزان ؟ وتغضى الليالي الصاخبة الحمراء بين القبول آمن والكاريه والليف ، والضحك والوجوم والأرق ، والأحلام لا تجدى والويسكي عابت خلداع حتى وقعت الواقعة وتقوض البناء ، والمكتوب على الجبين لازم تشوفه العين . يا له من موقف يستحق أن تنوح عليه الرباب . وتماسكت أم عزيز وقالت له بيقين :

— لا تنس أنه موجود ، وأنه لا ينسى عباده ..

وهو أيضا مؤمن بالرغم من معاصيه . وفو همة ونضال . مسعى في سبل شتى حتى عمل مدرساً في مدرسة ابتدائية أهلية بمرتب بسيط يصرف تبعاً للظروف والأحوال . وأقدمت تيزة على مغامرة جريئة فباعت أرضها لابنها الأكبر ، وأعطاهها الثمن بعد أن حجز منه نصيبه الشرعي نظير إنفاق نصيبها على أبناء أميه . ورضدت المال للإلتاق منه عند الطوارئ . وظل الحال كذلك حتى نفذ الملييم

القرآن وفي بعض ليالي السمر يشرب الويسكي ويعتسى ولا يفوته فرض . من محاسن الصدق أن زوجته القاهرية كانت عاقلة مهذبة كسول فلم يحدث ما يكدر الصفر ، وحصل تكامل بين العروم المحبة للراحة وتيزة أم عزيز المغرمة بالعمل وسبحان من يرفق بين الأضداد بحكمته ورحمته . بدأ طويلاً أن الحظ يستقر في بحيرة الطمأنينة حتى يرث الله الأرض ومن عليها . ولكن الابن الرشيدى ذكى وفو همة . ينظر فيما حوله فيلتقط لباب الأشياء . فكر ثم فكر ، وشاور ودير ، ثم قرر أنه لم يخلق للعمل الروتيني البسيط ، وأن حياته لا يمكن أن تضيع بين إشارة إلى كتابكم الرقيم وتفضلوا بقبول وافر الاحترام . كلا .. ما عليه إلا أن يبيع أرضه ويعمل بالتجارة ، ويخر التجارة البقالة . التمس قد تستغنى عن السلاح ، ولكن هيهات أن تستغنى عن الجبن والزبد والعسل والزيتون ، وقد فعل . وتيزة أم عزيز لم تعترض . بل تشجع وتعرض ، وإذا تألفت الزوجة قومتها بالأمثال والنكت . تيزة لا تحب المرح وحده ، ولكنها تقدس العمل والريح أيضا . وتحسن الأحوال تحسنا جميلا فيتجدد الأثاث والمظاهر ، وتذب حيوية جديدة في مجال تيزة أم عزيز . تتجلى مواهبها المأثورة في طهو الطواجن والضلمة

الأخبر والأولاد لا يتوقنون عن النمر . وتعدد المطالب والكل يعيش من أجل الأولاد والمطالب . شد ما صيروا على ضنك وحرمان ، أما نيرة لم عزيز فظلت نيرة أم عزيز . أو هكذا تبدت لعيني المرحمة القوية للشهدية ، والله أعلم بالسرائر . اليوم يا نيرة تعلمت أن المأسي قد تحكي في كلمات ولكنها تعلى على أنات الكسر وعذاب المعاناة وفي غيابات القهر . ولا أنسى حديث المتحاورين والمعلقين من بعيد :

— الله يسامحك يا عزيز ، نسي أمه وأهلها ، تآكل ما يعافه الخدم ، وترتدى الرث المرقع ، يا خسارتك يا أم عزيز ..

— الرجل معذور يا أختي ، طالما أنه لا توجد إلا لقمة واحدة فالأولاد أولى بها !
— ألم تبع أرضها من أجله ؟
— هي الدنيا والحكم لله وحده ..

كيف شقت تلك السفينة العارية المتهاككة طريقاً في مخضم الأمواج الكاسحة ؟ . كيف عانى الرجل الذى ليث حياته كلها ينفذ ثمن خطئه ؟ . ولكن رغم كل شيء أكرمه الله فأهدى إلى الحياة سنة من أروع الشباب المتفوق . لعلمهم لا

بذكرون عذاب الأب وهوان الجدة . وأشهد أننى ما رأيتك إلا باسمة حتى وجلبابك الرث يشف عن جسد جاف أعحف . وعجيب أننى لا أذكر رحيلك عن دنيانا التى تراقب الحوادث بعين واحدة . لعلك مرضت فلم يدر مرضك أحد . ولعل الليل تلقى من شكراك ما ضننت به على البشر . أو لعل ذاكرتى آتت أن تحفظ من ذكراك إلا صورة السيدة القوية المرحمة ذات العينين الناظتين والوشم المظل من غمازة الذقن . صورة الصبر الجميل والحب العميم .

بشهادة و شهادة قلمه



شهد شارعنا أروع جنازة في تاريخه الطويل حينما توفيت ست بطة . انعطفت مقدمة الموكب إلى الشارع العمومى على حين لم تدب الحركة بعد فى ذبول المشيعين الواقفين داخل السرايق فى موحرة الشارع . تقدمتها فرقة موسيقى حسب الله تعرف لحن الموت الذى تنقبض الصلور لوقعه فيهرع الأحياء للفرحة وتظل ربوس النساء من الترافد . وتبع الفرقة صفان متوازيان من حملة القماقم والمباخر ، بلطم السوداء بوجوه مغضنة كالمحبة . وتهادى العرش محمولاً على الأعناق بمنى وراه مباشرة الأهل وعلية المعزين ، يسبقهم الباشا — زوج الراحلة السابق — وأبنائها الأربعة منهنما اثنان من وكلاء الوزارة واثنان من مديري العموم ، ورفى بين كبار المشيعين وزير الحرية وكثيرون من ضباط الجيش العظام ونفر

حملة القماقم والمباخر

يا إخوان . كانت يوماً أجمل وأبهى امرأة في المحي . وكانت السراى تحفة لا ينقصها إلا الحرس . والخطير الأنيق وأول فوردي يسير في شارعنا . ما أحلاها وراء الباشك كأنها الأميرة عين الحياة . والحقيقة أن الباشا هو المذنب . مهلاً ، لا يخلو طريق الإنسان من أزمات وهي امتحان يكشف عن قوته كما يعرى ضعفه . وما وقع يقطع بأنها كانت امرأة مستهزئة تزقة ، وما أصابها إلا ما يصيب زوجات لا حصر هن كل يوم . أنتم تطالبون المرأة بأن تكون قديسة . أما الرجل فله أن يفعل ما يشاء . دعنا من آرائك الأفريقية وبطة لم تكن مجرد امرأة . كانت أمًا لصبيان وبنات . لماذا يحق للباشا وهو في الخمسين أن يتزوج من فتاة في العشرين فيهجر أسرته وذريته ولا يجوز للمرأة أن تخطي ؟ . تقاليدنا يا رجل . الأمومة مسئولية وقداية . طلفت في سن اليأس مهجورة وحريجة ، وككل عمسودة أرفها طيب الشمامسة فاحتاحها اليأس . هنا منطق قواد .. ها ها ها . دعه يدافع عن مامته ها ها ها . ووقع الانقحار وكان مفزعاً . ولم يحرك الأبناء ساكناً دفاعاً عن شرف أسرتهم . أليس ذلك بعجيب ؟ . كانت على أي حال أمهم ، ولم يكونوا دونها سخطاً على أبيهم المتصاي . ولا تنس سطوتها عليهم . كانوا يقفون بين

من الشخصيات السياسية والاقتصادية المرموقة . بين هؤلاء جميعاً سار على صريمة زوج المرحومة الجديد ، كاتب حسابات القرن الأفريقي ، بيدته العتيقة وطربوشه المنجرد وحذانه الغليظ وحسمه التحيل القصير ووجهه الذعيم . مشهد مثير للخواطر مفرج للذكريات قضى بحكم واقعه أن تجتمع الجنازة بين الصفوة والكاشرين . تابعه المشاهدون على الصفون باهتمام ، وداروا غالباً في تفسير قراره للذهل . شاهدنا الجنازة فيمن شهدنا من الخلق . ثم مضينا بعد ذلك إلى المقهى . انطلقت الضحكات من حناجرنا بغير حساب ، وانفدنا نفصح عن انفعالنا . من منا لا يعرف مست بطة ؟ . من منا لم يعجب بفحامة سراى الباشا ؟ . ومن منا لم يطلق لسانه على السراى وما يجري فيها من أحداث ؟ . وسرعان ما تلقت التعليقات ساحة الذكريات بلا ضابط ولا نظام .

برافو صريمة تمكنت أخيراً من أن تتحرك بين الباشوات كأنك واحد منهم . لكن اليوم يوم ست بطة فهي صاحبة النصر . ما هي إلا جثة لا تميز بين الهزيمة والنصر . إنه يوم على صريمة ولو صفع بعد ذلك على القفا . يا سبحان الله



زواج عجيب بين امرأة تشرف الستين ورجل في الثلاثين

يديها كالحفراء أمام الباشا المدير بخلاف أبيهم الذي لم يكن له وزن يذكر . ما أكثر الضباط المهابين في ثكناتهم ، الوديعون في بيوتهم . كالثواء حماد باشا . مثلاً . وربما كانت الحكايات مجرد شائعات ! . شائعات ! لا لا ، حتى الخدم كانوا يتغامزون ، وعم مجاهد بعد طرده من السراى أقسم أنه ما من رجل ترد على السراى لشأن ما إلا وكان له معها مغامرة ، الخضري .. الجزار .. الكواء .. حتى جاء الختام على يد على صريمة ، وصل على النبي ولا تقل شائعات . يا ناس لو كانت امرأة شبيقة ألم تحذ في طبقتها من يرافقتها ؟ . عائلها الزمن يا بطل وللعصر أحكام ، وفي أمثال تلك الظروف تقوم الطبقة الشعبية بالواجب . وفي الوقت المناسب شبت ثورة الأبناء . ألم تجي متأخرة عن الوقت المناسب ؟ . الثورة لا تشب إلا في الوقت المناسب . إنه يعني أنهم بلغوا سن الرشد وتشمموا رائحة كريهة ، فأحكموا إغلاق الأبواب وقالوا بلسان واحد لا مهازل بعد اليوم . وماذا كانت النتيجة ؟ ، نشبت ثورة مضادة ، وقالت لتمام أنا حرة وملعون أبوكم ، وغادرت السراى مضحية بكل شيء في سبيل شهرتها . ولكن لماذا كانت من نصيب على صريمة ؟ ، إنه أقيح الجميع وجهاً وأحقرهم مظهرًا ؟ . يوجد شيء اسمه

السر البائع ها ها ها . زوج عجيب بين امرأة تشارف
الستين ورجل في الثلاثين . سلمت له نفسها بكل ما ملكت
من حلى ، وعاشت راضية في أصغر شقة في شارعنا تغدق
عليه الحب والمال . زوج متكافئ فيما أرى . هل رأيتموها
في أعوامها الأخيرة ! . منظر يفر الرثاء ويشهد للرجل بجميل
الصور . ما هو إلا ثعلب وكان على علاقة مع شمس بنت
بياعة المتزول . له عذره . كل إنسان له عذره حتى اليأشا
نفسه . ما شاء الله وإذن فليحيا الملك وليحيا الاحتلال .
ماتت فلم يصوت عليها أحد . هُجرت وقوطعت كأنها لم
تعجب بنتا ولا ولدا . ربنا لا يحكم عليك . أشهد أنني رأيت
على صرمة دمع العينين . الثعلب ! . القلوب أسرار . مثل
أسرار الثورة الغراية . لكنه عرف كيف ينتقم من جميع من
احتفروه . كيف واثته الجرأة على نشر هذا النعي الذي أورد
جميع باشوات ويكوات الأسرة ؟ . ضربة معلم تعلم أصولها
ولا شك في القرن . ولكنه جاملهم فوصف نفسه في النعي
أحمد صرمة من رجال الأعمال ها .. ها . كفاية ، واذكروا
حسنات موتاكم . هل وجدنا حسنة واحدة وسكننا ؟ . أقول
لكم لا يعلم الحقيقة إلا الله . ترى ماذا يدور بسرائر أبنائها
وبنائها اليوم ؟ حلمك . سينضح كل إناء مما فيه وتظل

الحقيقة حيث هي . حكاية ست بطة تذكروني بحكاية ست
أومة ! . وتذكروني بامرأة العزيز . كفاية .. كفاية .. كفاية
دعوها الآن بين يدي من لا يقلم .

(لقرار الأخير)

الغد قادم أيضا

فيلا ؟ ، لا والله إنها لسراي . تشغل حيزاً هائلاً فوق
جبل المقطم . ويضفي عليها طرازها العربي مذاقاً خاصاً من
الأنهية والعظمة . حديقتها زهراء مزارية تشمل ثلثي المساحة
الكلية ، وحمام السباحة في الوسط علامة عز نادرة ، جلسنا من
حوله للعشاء ، ولسماع نغمة من المغنين والمغنيات بصوت
الكلمات المصرية في أوزان أفريقية ، تحت عناقيد المصاييح
الكهربائية للمغروسة في الغصون . الداعي صديق قديم ، هو
اليوم نجم سينمائي يخطي بشهرة متطليرة وعية أسرة ، أراد
السميع العليم أن يمتعه وهو في عز الرجولة والجمال .
واختصت مائدتنا بنفر من الرجال ، لا يمتنون للفن بصلة
ولكنهم يمثلون صداقة الصبا والزمان الأول . جلسنا في شبه
غربة نتهامس في غمار صحب الوسط الفني ، ونتطلع إلى
الرجوه فنقول هذا فلان وهذه فلانة وذلك بين بين ، ولا نكف
عن الأكل والسمر . الحق أن عريس الليلة الذي يحتفل بافتتاح
مقامه الجديد أغدق علينا ألفه وأنسا بوقائه وتمسكه بأصول

ماضيه رغم انهماكه في العمل للتصل ما بين السينما والمسرح والتلفزيون . وعمق من جلوس الصلة القديمة أن أحدنا يعمل محاسباً لضرايبه ومستشاراً مالياً له ، وآخر تزوج من عمته في الأيام الخالية .

رحت أرقبه وهو ينتقل بين المواعيد مرحباً ضاحكاً مداعباً موانسا ، يكاد يتوهج تألقاً وجمالاً وصحة وعافية . هي السعادة عندما تجود بنفسها بسخاء ، وتجعل من الواقع حلماً من أحلام اليقظة .

وقال أحدنا بحرارة :

- رينا يديم عليه النعمة .

فقلنا آمين . وحل بعدها صمت مباحث كأنها لم يجيء مصادفة . وتخلّى في الأعين نظرة جادة كأنها لون الصمت . هل رحنا تذكر ثقلبات الدنيا وما حفظناه في ذلك من الشعر والنثر؟! . وتذكرت زملاء كانوا مثلاً للوحاعة وكيف عصفت بهم الثورة وحوثهم إلى صعاليك تعاف النفس منظرهم . وليست الثورة وحدها التي تعبت بالمصائر ، فلابى حشرة دور وربما لفحة هواء أو نرق النشوات . ما علينا ، اللهم احفظنا ، واحفظ لنا صديقنا الوفي الكريم ، وإذا بصديق يعبر الصمت متسائلاً :

- هل تتذكرون ؟

نظرنا نحوه مستطعين بقلوب خالية إلا من السرور ، فابتسم مواصلاً :

- ليلة الشطرنج في مقهى ليزيس !

وأكثر من صوت قال :

- عليك اللعبة .. ماذا ذكرت بها ؟

ونادت عنا ضحكات خافتة تناسب المقام ، فعاد الصديق يقول :

- الذكري مقيمة في أعماق ذاكرتي .

ونحن أيضاً مثله ولكنها لا تكاد تخطر بالبال ! إلا كل حين

ومين . كان صاحبنا يلاعبنى شخصياً وسط حلقة من

المشاهدين . بدأت بتحريك حديدتي وانتظرت أن يبدأ . لكنه لم

يبدأ . بل نظر في وجوهنا نظرة غريبة وقال :

- سأغادر دنياكم بعد دقائق !

فطننا بمزح ، ولكن وضع لنا أن وجهه شديد الشحوب وأن

نظرة خافية تظلم من عينيه . مع ذلك قلت له مازحا :

- العيب أو سلم !

سرعان ما انطرح جذعه إلى مسند الكرسي وشهق شهقة

شيفة ثم غاب عن الوجود . من ينسى ذلك المنظر ؟ . من

ينسى ارتياكنا وفرغنا ؟ . من ينسى ضياعنا في قصر العيني

حتى صباح اليوم التالي ؟ . ما كان أبأسك يا صديقي في تلك الأيام . ألم نطلق عليك بحق الشاكي الباكي ؟ . دائما تنشكي من عمك الوصي عليك كما تبيكي حين الخائب . ولكن ماذا ؟ .. هل أفلتت منا بعض التفاصيل ؟ . يقول أحدنا :

- كان الحب وراء محاولة الانتحار .

فيؤكد آخر :

- بل عمه .. كان فظيلاً حقاً وصدقاً .

لا أهمية الآن لذلك . المهم أن صديقنا الذي أرجعنا إلى الماضي تسائل :

- ألا يعنى ذلك أن الانتحار مدعة وخرافة !؟

وحضنا في حديث الانتحار طويلاً وهو ذو إحصائيات مشيرة وخاصة إذا تعلق بالأمم الراقية . ولكن الجو الجميل الذي تنتفسه دفعنا إلى التهورين من شأنه وروحانيته .

- اليأس حال عمر وكأنه لم يكن .

- تصوروا لو لم تنقذه العناية فمن كان يحظى بالنجومية ؟ ومن كان يشيد هذه السراى ؟ .. ومن كان يتعم بهانه

السعادة !؟

واقترح أحدنا أن نذكره بليلة الشطرنج ، ولكننا رفضنا الاقتراح رفضاً قاطعاً . وإذا بالعريس يقبل نخونا ، وجلس بيننا وهو يتساءل :

- هل يتفصمكم شيء ؟

فشكرنا وأتينا عليه بما هو أهله ، وقال أحدنا :

- لا مطلب لنا إلا أن يديم الله عليك نعمته ..

فحمد الله . ودعاه صمت مريب . ثم قال بتيرة اعتراف :

- صدقوني ، أشعر أحياناً بأننى نلت فوق ما أئتمنى ،

وأئتمنى ولو للحظة عبارة أن يأخذنى الله من فوق قمة السعادة !

مؤامرة

الجو يقطر غلاماً ، ولكن الأشباح تتراقق في وجوم . السيد
يتظاهر غضبه شرراً ، والأنباع بين يديه يقومون في ذلة وكآبة .
ويهدر السيد قاتلاً :

– يا لها من هزيمة لم تخطر لي على بال طيلة الأجيال المتعاقبة ،
ها نحن نتخبط في مستنقع البطالة السافرة ..

وسرت همهمة مليئة بالاكتماب ، حتى قال أحد الأنباع :
– ما قصرنا ولا أهملنا ولا ترددنا ، عنى شخصياً فقد تخيرت
رجالاً صالحاً لا تقاربه الإشاعات ، وموضع ضعفه لا يخفى على
أحد ، فهو ذو دخل محدود وأعباء ثقيلة ، أغريته بالمال رشوة
أو احتلاماً ، ولكنه أبى بصلاية عجيبة ، عرضت عليه اقتراحاً
براق المظهر ، أن تقرضه مبلغاً محترماً ليستثمره في مصرف
أو شركة ، فتسد الفوائد القرض ، ويبقى له بعد ذلك رزقاً
حلالاً ، فأعرض عنى في استياء وكبرياء !
فتسائل السيد :

– ألم تذكره بما يجرى حوله ؟

– إنه يعرف كل شيء ، حتى الأسماء يخفظها عن ظهر قلب .

وتحول نظر السيد إلى التابع التالي فقال :

– انتقيت رجلاً يعتبر مثلاً في التقوى والعفة ، واستبشرت
خيراً بحيويته الذفافة وقوته الموفورة ، سلطت عليه امرأة يذوب
الصخر في دفاء عينيها ورشاقة بنيانها ، ولكنى لم أدر من أين
وأنته المناعة الراسخة ..
فصاح السيد :

– لعل الخطة لم تكن محكمة ، ألم يزل أبوهم وهو في كنف
ذي الحلال ١٩

– صدقتى يا مولاي ، تخدنتى صلابة تفجر اليأس في ينابيع
الأمل ..

وجاء دور التابع الثالث فقال :

– عثرت على أرملة جميلة ونعيسة تكرس حياتها لتربية أربعة
من الأبناء ، وتشتقى بأكثر من عمل وبلا معين ، اعتقدت أنها
لقطة لمن يريد أن يعوى ، وأبى خصصت بمهمة يسيرة ، ولكنى
وجدت الحلية في بيت الرجاء ، رغم تعدد الوسائل وكثرة
القوادين والشقق المفروشة ، كأنها ليست من فريضة حواء !
فتفكر السيد ملياً وعيناه تنوهجان في الظلمة ثم قال :

– حسبنا ما سمعنا ، لا نريد مزيداً من القرف ، أنا نفسى
منيت بالفشل ، ولكن لا شىء يدعو لليأس ، فالمسألة أنه إذا

وجدت قلة صالحة في محيط من الفساد فلا بد أن تكون على
درجة من المناعة يتعلم غزوها ، فلندعهم في سجنهم الاختياري
ولنتلفت إلى الفاسدين ..

فقال أحد الأنباع محذراً :

– ليسوا في حاجة إلى إغواء ، إنهم يسبقوننا إلى السقوط
قبل أن تدر منه حركة واحدة .

فضحك السيد بحرارة حتى تطاير الشرر من فيه وقال :

– هنا يكمن سر أزممتنا ، لم يعد الشر بحاجة إلى مهارتنا ،
لذلك انضممنا إلى زمرة العاطلين ، وعلينا أن نقصد أنفسنا من
شرك البطالة ..

تضمن حديثه دعوة إلى إبداء الرأي دون إفصاح ، فقال تابع :

– لعد الكرة بتصميم أشد .

فرمقه بازدراء نارى وقال :

– بل علينا أن نغير الخطة من جذورها ..

فتطلعوا إليه بانتباه مركز فقال :

– لم يبق لنا إلا أن ترتدى أردية التقوى ونسير في الأسرراق
لتوقف الضمائر من جديد ..

وتبادلوا نظرات الدهول فواصل السيد :

- للضرورة أحكام كما يقول بنو آدم ..
 - ولكن لم نوظف الضمائر الميتة ؟
 - كى يكثر الصالحون فينتسج مجال الإغواء أمامنا ..
 فقال تابع بعد تردد :

- أنكار مولانا دائماً صائبة ، ولكننا لم ندرب على إيقاف
 الضمائر !
 - من السهل تعلمها بالاندلس في الجوامع ومتابعة أجهزة
 الإعلام .
 - يا سيدنا ومولانا لو أن للكلام أثره الخلدى لما تردى الحال
 إلى ما تردى إليه .
 - بقوة سحرى نحصل على نتائج مشجعة ..

وقال تابع :

- هل يكفى الكلام وحده ؟ .. هناك سلسلة من الأزمات
 الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تستل من أى كلام فعاليته ؟
 - أعلم ذلك ، وأعلم ما لا تعلمون ، دعوا الأزمات فقد
 تسندنا فيما بعد ، وكما وجدت قلة صالحة في مناخ فاسد لن
 يتغير علينا مضاعفة أعبادها ، انطلقوا فتعلموا الوعظ والإرشاد
 وبه يسحرى الذى لا يقاوم وسوف ترون ..
 - يا له من جد ، ولكنه بالمزاج أشبه .

فضحك السيد وقال :
 - غير من اليأس والبطالة .. بادروا إلى عملكم دون إبطاء
 فالوقت من نار ..

بعد حين من الدهر جمع الطلاب السيد وأتباعه على حال
 جديدة من الإشراق . وقال السيد فى شيء من اللرح :
 - هاتوا ما عندكم .

قال أكبر التابعين :

- الحس أنتى وجدت صعوبة فى ممارسة دورى الجليد ،
 ولولا تأييد مولاي وسحره ما دقت طعم التوفيق ، ولكننى
 درست الوعظ بهمة عالية ، وانضعت كثيراً بما ينشر فى صحف
 المعارضة ، وما تلهج به الألسنة فى الشوارع ، وكان فى المدينة
 رجل من ذوى المعاشات يقيم فى بيت قديم ذى فناء غير ذى
 زرع ، له من الأبناء أربعة يشغلون مراكز مرموقة رغم أنهم من
 فوى الدخيل المخلود ، الرجل يا مولاي طيب أبيض الصفحة
 وذو دين ومبادئ ، ولم يكن معاشه يكفي أسبوعاً أمام الغلاء
 الوحشى ، ولكنه وجد فى بر أبنائه ما جنبه أسباب القلق ، وفى
 ظل تلك الطمأنينة تزوج من أرملة تجاوره فى المسكن وتصغره

بعشر سنوات ، تسلمت إليه فى مشرب عصير على كتب من
 مسكنه ، واتهمت خطوته قتلاً بجرأة الدراويش :
 - لى ما أقوله لك ..

فنظر إلى جلابى الأبيض وعمامتى الخضراء واتسامتى الحنون
 وتساءل بفتور :

- من تكون يا حضرة ؟

فقلت بهدوء وثقة :

- نادانى صوتك الحار وأنت تضرع إلى الله عقب صلاة
 العشاء « ربى اكب لى ولأبنائى الرضا فى الدارين » .

ودهش الرجل ودب فى عينه الاهتمام ولم ينس فقلت :
 - تأثرت لضراعتك وقلت هذا رجل طيب بندر وجوده فى
 هذا الزمان الكالح ، والله لأزورنه ..

تمتم الرجل :

- إنك ولا شك من أولياء الله الصالحين !

- دعنا من إغناق الصفات ، إنما جئت لأتفكك ..

- تفككتى ! .. ولكن الدنيا بغير ..

- ليست كما تبدو ، كان يجب أن تسأل نفسك : من أين

يجىء أبنائك بالمال الذى يكرمونك به !

فقال الرجل مقطياً :

- إنهم يشغلون مراكز كثيرة كما لا بد أن تعلم .

- فى زماننا هذا لا ينفع مرتب ولا بنون !

- ماذا تعنى ؟

- كلامى واضح ، أبنائك منحرفون والآخراف مغتبه وخيمة

فتهتف الرجل :

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أنا لا بداعنى شك فى

أبنائى ..

- من أجل ذلك جئتكم ناصحاً ..

فقال الرجل بخرج :

- أنا لا يمكن أن أمس ذلك الجانب من حياتهم .

- أفهمك جيداً ، ولكن أطفالك إذا اجتمعوا عندك إلا بأن

تدعو لهم بالنجاة من شر الزمان ..

فقال الرجل بارتياح عابر :

- هذا ما أفعله دائماً ..

- ولكننى سأبذل قوه من عند الله قادرة على تحويل الصخر

إلى ماء عذب .

وتناولت راحته بين يدي وضغطت عليها طويلاً .

وسأله السيد فى صمت من اهتمام التابعين :

- ولم لم تقصد الأبناء مباشرة ؟

فقال التابع بزهر :

- اصطدت أربعة برمية واحدة !

فقهقه السيد فقهقه تطاير منها الشرر وقال :

- أحسنت .

وواصل التابع حديثه في ارتياح وطمأنينة :

- وتابعته من موقعي يا مولاي ، لم يحلم العجوز الطيب بما

لدعائه الجديد من أثر ، ولا خطرت بباله العواقب المتوقعة ، لم

يلد أنه أصبح أبا لأربعة من التائبين المستغفرين ، ولكنه شعر

بمعاملة أخرى قوضت حصن سلامه السيد ، عجز الأبناء عن

مواصلة البر به ، تلقى أعداءاً وتأوهات كثيرة وتقودا قليلة

لا تغني ولا تجدي ، ودب الشقاق في بيوت الأبناء فشمل

الزوجات والأبناء ، أما العجوز فاقبلت حياته عناء متصلا حتى

ضاق بزوجه كما ضاقت به ، ووجدت في ذلك الكرب ما

عزائي بعض الشيء لممارسة خسر لم أخلق لممارسته ، وسوف

يُجد في ذلك المناخ المتوتر المشحون بالقطوط ما ينفعنا عندما نرتد إلى

أداء رسالتنا الأصلية !

فهتف السيد :

- جميل .. جميل .. جميل ..

وتقدم تابع ثان فقال :

- أما أنا فنبعت السيدة الجميلة حتى استقرت في الشقة

المقروشة ، استعدت تنتظر صاحب الحظ ، فرأيتني أمامها في

زي عظيم من رجال الشرطة ، فرعت فرعا شديدا حتى

جحظت عيناها ، استحلفنتي بأولادى أن أسرع عرضها رحمة

بأسرتها .. وتظاهرت بالثأر وقلت لها :

- في وسعي أن أسوئك إلى القسم لتتألى جزاءك ، ولتعزفي

هناك بالدور الحسيس الذي يلعبه الوغد زوجك ..

فاشتعلت حرارتها في توسلات دامعة حتى خفت عليها

الموت ، وعندها دعوتها للتوبة وتقويم المعوج من سلوكها ، ثم

غادرت الشقة وهي لا تصدق ، ما حدث بعد ذلك لم أتوقعه ،

فقد ثمرت على زوجها ورثته بما يستحقه فنشب بينهما نزاع

عنيف ، وانساق الرجل مع غضبه فانهال عليها ضربا وركلا

حتى فارقت الحياة ..

فصاح السيد :

- ما أنت إلا غبي ، كان يجب أن تلقى الموعظة عليهما معاً

في آن ، أما أن تقتل المرأة ويعاقب الرجل فقد ضيعت علينا

فرصة عمل فريد .

فقال التابع بصوت مزاجع الترة والشعور :

- معذرة يا مولاي ، ما أنا إلا مبتدئ عديم الخبرة في طريق

الخير ..

وتحول عنه الشرر بتطاير من نوافذه إلى من يليه فقال :

- ذهبت إلى رجل تحسه في حاجة إلى إغواء لا إلى موعظة

، حذاب المظهر ، نصف كلامه قرآن وحديث ، حمال لا يفسد

على الفساد والمنحرفين ، متطوع كلما سئحت فرصة لإلقاء

خطبة الجمعة ، كثيرون يظنوننه داعية رغم وظيفته المرموقة ،

هائم زوَّار للبقاع المقدسة ، أما خطاياها فهو قواد لكبار الفاسقين

، وشحاذ مداح في رحاب الأمراء ، وهو بعد ذلك خبير في

المنافضات ، ولولا أنني ذهبت إليه في زي خليجي لما أصغى لي

، ولكنني استطعت أن أهرب إليه موعظتي ، ونجّلت أمام عينيه

صورته الحقيقية البشعة فائقتمه الاكتاب وراح يترع بالأموال

الظالمة حتى أخرج للمستثمرين أموالهم في الخارج .

فقال السيد بارتياح :

- إنجاز متقن .

وجاء دور الرابع فقال :

- وقع في يدى رجل يدفع سيارة إلى الخلاء ليغتصب فتاة

مغلوبة على أمرها ترتعد إلى جانبيه . وجدائى أطل عليهما من

المقعد الخلفى على هيئة رياضى مفتول العضلات ، ذعر الرجل

وتعلقت بي الفتاة ، ولكنهما لم يلقيا منى إلا خيرا ، كلمات

طيبة مفعمة بالقوة الخفية عن الاستقامة والاحتشام والعفة

والشهامه ، ثم رجعا إلى العمار بسلام وتفرقا في وثام ، وهما

الآن يا مولاي مثالان للأدب وموضوع طيب للعمل !

وتتابع الحكايات عن تيسار المحدرات والمدمنين والمهربين

والعملاء ووحوش الغلاء والإرهابيين والمنطرفين والصوص

وقطاع الطرق .. وارتاح السيد لما سمع ثم تسائل :

- هل لديكم أقوال أخرى ؟

فقال تابع متحمس :

- توجد بحالات أخرى للعمل ، فلا يتخلو نشاط من أزمة

يمكن حلها من جذورها أو تخفيف وطأتها ، فلا بد من جولات

بين المستولين !

فقال السيد :

- اسكت يا قصير النظر ، إن اقترحك يفضى بنا إلى خلق

مجتمع صالح ومناخ نقي يتعذر علينا فيه إغواء أحد من البشر

إلا بطلوع الروح ، لشرك القلة الصالحة في صراعها مع الكثرة

الفاسدة . ولندع الإصلاح في مسيرته التمهلة ففى ذلك عون

لنا لا يصح أن نفقده ..

وزهر بارتياح حتى ملأ الفراغ شرراً وقال :

- يمكننا الآن أن نقول إننا تغلبنا على مشكلة البطالة ، فهلموا

إلى العمل .

طبقات السعادة

مثال الرقة والعذوبة كان . زمي على قمطر واحد على مدى
حسن سنوات هي مدة دراستنا التوية . أبوه مدرس اللغة العربية ،
شيخ مقدر قوى الشخصية مهيب الجانب يسود فضله النظام
والقانون . أما ابته فهو قنوة في الأب والحياء والسلوك السوى . بعيد
كل البعد عن شقولة الأقران ، مسلم ، فى حاله ، لا يند عنه لفظ
خشن أو يصدر عنه سلوك منحرف . ذكره دائماً يفوح بلأريج الطيبة
والدمامة ، فلنكم هو حلمى أبو هر .

* * *

عند سخط الكولوريا افترقا . وا لم يكن من حيننا لم أعد أدرى
عن مصيره شيئاً . واصلت دراسن الجامعية وتوظفت فأنسيته تماماً
وتمزقت علائق الزمالة القديمة سحبة ورائها جميع متعلقاتها .

* * *

ذات صباح ، فى زمن لعد الأربعينيات ، مررت أمام قسم
الموسكى فى طريقى إلى دار الكتب للقراءة أو الاستعارة

- ٨٦ -

قرأت الزميل القديم واقفا عند مدخل القسم وسط منظر
درامى مؤثر . ضابط شرطة برتبة لم أعد أذكرها ، يمثل أمامه
غير قابضاً على رجل من أهل البلد من أعلى جلابيه . الزميل
القديم يتفحص ابن البلد بمنق شديد ، صارخا فى وجهه :
- رجعت إلى عادتك القديمة يا ابن ..

وانطلقت من فيه مجموعة واقية من أقذع الشتائم مخدقة حرمت
الأم والأب والجدود ، وهوى على وجهه بضربة هائلة ، ثم أردفها
بركلة نوته مؤا . وصاح بالمحير :
- ارمه فى الحبس حتى أرجع ..

ذهلت ذهولاً لا مزيد عليه . امتوت الصورة الغليظة الوحشية
المائلة أمامى إلى جانب الصورة الوردية للمفوفة فى الحياء والعذوبة
التي استدعاها الخيال من ظلمات الماضى - رددت بصرى بين
الائتين وأنا لا أصدق . ومنعا للإحراج أردت أن أزوغ قبل أن
يرانى ، ولكنه نحى وهو يهبط سلم القسم فى خيلاء وثقة . ثبتت
عيناه على قليلا وسرعان ما هتف :

- أنت ! .. والله زمان !

تصافحنا فى حرارة . ولما عرف مقصدى قال :

- طريقنا واحد حتى دار الكتب .

- ٨٧ -

سرنا جنبنا إلى جنب كالزمان الأول . أصبرته بإنجاز عن
دراسنى ووظيفتى ، وإذا به يقهقه فجأة قائلاً :

- لاشك أنك عجبت لما آريت منى وصمعت ؟

فقلت مرتبكاً بعض الشيء :

- الحق أنى

فقاطعنى قائلاً :

- المهنة تخلق الإنسان خلقاً جديداً .

فسألته :

- أليس فى القانون ما يكفى ؟

- القانون ! ، لا تجرنى إلى عالم النظريات ، القانون مفسدة

ملوآء ، إنى يحكم عملى لا تعامل غالباً إلا مع الأرباش ، فلا

مفر من استعمال لغتهم وتبنى سلوكهم ، القانون ؟! ..

وضحك ساخرأ ثم مضى فى حديثه :

- لو تعاملت معهم بما يرضى القانون واحترام الحقوق

لاعتبروا الحكومة مهزلة وتمادوا فى شرهم إلى غير نهاية ..

فقلت متحدياً :

- ولكنكم تعاملون للتظاهرين نفس المعاملة وهم صفوة

الشباب !

- لا .. لا .. هذه مسألة أخرى .. لا تمل بنا إلى السياسة ..
 السياسة كما تعلم قوانينها الخاصة ..
 ثم مواصلاً بعد فترة صمت :
 - الحياة الحقيقية في الشارع لا في فار الكعب ، السجن
 لا يعتبر عقوبة مناسبة مع هؤلاء ، شعبك غير الشعوب الأخرى ..
 فتسألته :

- أليسوا أناساً مثل الآخرين ؟

- كلا ، اعلم أن السجن يوفر لهم ما يرى أفضل بكثير مما
 يتهيأ لهم في حياتهم العادية وطعاماً لا يفتشون مثله في غالبية
 أيام السنة ، فالمسجون لا يعتبر عقوبة رادعة لهم ..
 وهز رأسه في ثقة من اطمأن إلى انتصار منطقته ، ثم قال :
 - العقوبة الوحيدة المجدية هي ما قبل العقوبة الرسمية ، أعنى
 الشتم والضرب والإهانة ..

واسؤسئل ضاحكاً :

- لا تزعج ، ولكن عليك أن تصدقني ، منهم نفر إذا
 ضاق بهم الحال اختعلوا خنافة كيفما اتفق ، لا لشيء إلا
 ليفبض عليهم فيعيشوا في ضيافة الحكومة وعلى حسابها مدة
 ستة أشهر ..

تفكرت قليلاً ثم قلت :

- كنت أتصور أنني ملم بتعاسة شعبنا ، ولكنني لم أعرف
 مداها إلا الساعة ..
 فقال لي مصدقاً على قولي :
 - في ذلك لا خلاف بيننا على الإطلاق ..

مسافر بحقيقية يد

في الصباح المبكر تبدو المدينة هادئة ، شبه خالية ، نقية ،
 تعود شمستها البازغة بدفقات من الحرارة تطف من حو الشتاء .
 اجتمعت الأسرة في الفيات ، الأم تقود ، وهو بجوارها تفصل
 بينهما حقيبة سفر بدوية ، وفي المقعد الخلفي جلس الغلامان في
 زي للمدرسة الرسمي . نظر الرجل إلى الطريق بارتياح وقال :

- شد ما بيدد الزحام من وقار الشوارع ..

لم تعلق ، ولكنها دفعت السيارة بشيء من السرعة حتى
 بلغت المدرسة في ربع ساعة . وغادرها الغلامان مسرعين
 فهمس الرجل « إلى الصيدلية » ، فانطلقت المرأة بالسيارة نحو
 الصيدلية الواقعة على كسب في الجانب الآخر من الطريق .
 مضى الرجل إلى الصيدلية وابتاع أدوية مختلفة له ولزوجته ،
 ورجع إلى مجلسه وهو يقول :

- لا تهملني في تعاطي الدواء من فضلك .

فساقت سيارتها وهي تقول باسمه :

- إلى البنك وهو الأهم .

الحركة الآن انفجرت في الطريق . إنها لا تجيء تدريجياً
 ولكنها تنفض كزلزال . سيارات وباصات وشاحنات كأنها
 تندفع في سباق . وقطعت الفيات طريقاً قصيراً في زمن طويل
 نسيا . وغادرها الرجل إلى البنك ، فوجدته شبه حال فأخذ من

حسابه رزمة ودمها فم جيب بتطلونه ورجع مسرعاً . ووضع الرزمة في حقيبة زوجته نائلاً :

- تصرفي في نطاق وقتك ودعي الباقي لي .

- تعود غدا ؟

- أو بعد غد على أكثر .

ومضت به نحو الخطحيث وقتت أمام مدخلها الشرقي وسألته :

- هل أصبحك حتى يقوم القطار ؟

فقال بسرعة :

- لا .. ما وراءك من ، إلى اللقاء يا عزيزتي ..

بعجبه في اللحظة أنا لا بغمض لها حفن . هناك دائماً من يدخل ومن يخرج يلتقي دائم للعادين والراجلين . وتحت سقفها العالي تتضخم أصوات وتزداد الأصلاء ، وتصدر عن القطارات الراقفة نغمة حارة صاعبة تحرك نوايا الوداع الكامنة . وخفق فؤادو غم انشغاله بما خلف وراءه وما ينتظره هناك . وتذكر رحلات ورحلات ، ودموعاً وبسمات ، ثم علق بلسان خاطره « سبحان من له النوام » . وقدت نحوه جماعة من المسافرين ، ملح وظها امرأة في سن النضج جذبت بصره بقوة . ذهل بعنف قبل أن يتمكن من استرداد توازنه . كان يظن أنها انتقلت إلى حوار له من زمن غير قصير . لا يتذكر الآن كيف استقرت تلك العلومة في رأسه . ربما عن تشابه خاطئ في الأسماء أو الخير أمد فهمه . ولما اغتربت منه رأته بدورها فابتسمت . وتلقائياً تمافحاً . تتمم :

- مفاجأة مباركة !

فقال ضاحكة :

- كم مضى !؟ ، إنه عمر ..

وتبادلا التمنيات الطيبة ، ثم سارت في مسيلها . حاج صدره بالانفعال . قال لنفسه : لو أنني رحل آخر لكان لي معها شأن كالأيام الخالية . وتقدم في طريقه احترام نحو شباك التذاكر . ومضى نحو القطار المنتظر . هناك جماعة من المدعنين ، ولكن ما هذا ! ثمة رجوه يعرفها ، بل لا يوجد وجه غريب ، فهم إما أقرباء أو حيران أو زملاء ! . وما هم بتجهون نحوه كأنهم ما جاءوا إلا لتوديعه . ما الحكاية ؟ . وما هي إلا رحلة يوم أو يومين لا يعلم بها أحد . وما اعتاد أن يودعه أحد حتى في الرحلات الطويلة . وحرت المصافحة من يد إلى يد وهو يقول :

- أي مصادفة أن تسافر جميعاً في قطار واحد !

ولكن أكثر من صوت قال :

- نحن جئنا لتوديعك !

فقال ذاهلاً :

- من أدراكم بسفري ؟ ، وما هي إلا رحلة يوم !

لم يعبأ أحد بكلامه ، وأحاطوا به بمودة ظاهرة ، ودعوا له بالسلامة فهتف ضاحكاً :

- أمركم عجيب !

فقال له عمه ، وكان أطعن الحاضرين في السن :

- ليته كان في الإسكان أن أسافر معك .

فقال بتأثر شديد :

- شكراً .. شكراً .. يوسفني إزعاجكم ، والمسألة

لا تستحق ..

وسألته حالته :

- لم لم تصطحب أمانة هاتم معك ؟

- أنا ذاهب لعمل وهي البيت لا يستغني عنها .

ولم تكن الدهشة قد فارقت ففساءل :

- ولكن كيف عرفتم بالحسب ولماذا تخشعتم هذا

العناء ؟

وأكثر من صوت قال :

- أهذا كلام يقال !؟

وأطلق القطار صفارة كالتذير ، فلوح لهم مودعاً وصعد إلى المقطورة . وصعد معه بعضهم فوضع حقيبته فوق الرف ووقف بينهم يتبادلون كلمات طيبة . وغادروا المكان واحداً في إثر واحد ، وأغلق الباب ، فهتف في ارتياح وأخذ مجلسه . وتبين له لأول مرة أنه وحيد في العربة كلها وأنها خالية من الركاب . يا للغرابة ! . لم يحدث أن قام القطار في الأعرام الأخيرة وبه مقعد واحد خال . ماذا حصل في الدنيا ، وكيف يستقل قطاراً خالياً وكأنه الملك في زمانه ! . حقا إنه

يوم حافل بالذهلات . وتحرك القطار .. أنساب على مهل مفارقاً الخططة والمدعنين . وأخذت السرعة تزداد ، والإيقاعات الرتيبة تهزج بلا انقطاع . مسيحد وقتاً لتأمل جميع ما مر به وفهمه . وتنهت مسأللاً :

- ما معنى هذا كله !؟

رجل أفسس

غادر البيت الكبير ممثنا . توجه نحو الطريق الذي أشار إليه الوكيل عند حافة القرية . إنه طريق طويل ضيق يشق الحلاء بين ترعة تجرى إلى يمينه وحقول تزامى إلى يساره ، ويفضى في النهاية إلى البيت الصيفى حيث يخلو صاحبه إلى نفسه أو يجتمع بنفر من خاصته . الجو يعبق بحنان الصيف اللولبي وبشائر الخريف ، والشمس على وشك الاختفاء وراء الأفق ماسية اللون رقيقة الحاشية . المشوار غير قصير ، والأرض مژبة ، ولكنه سيلقى الصديق الكبير بعد أن مدت السبل في وجهه واكتفهر الجو . والفضل لعلم محمد وكيل البك في تيسير مهمته وإرشاده إلى مقر صديقه . قال :

— ما كنت أدل غيرك على مكانه .
فشكره متوها بمودتهما القديمة . سار على هدى الخط الذي رسمته عجلات سيارة البك في الأديم المترب ، والمساء يهبط وتبدأ جحلا بهدوء عميق ، يكدره نباح كلاب مقطوع ، والنخلات القليلة المبعثرة تذوب على مهل في الظلام الزاحف . وتراءى لعينيه شبح يتقدمه لا يدري من أين أتى . نياطاً في سيره ليبتعد عنه ، ولكن الشبح تابطاً أكثر فيما بدا حتى قصرت المسافة بينهما ، فوضحت معالنه عن امرأة تلتف (القرار الأخير)

بنوب أسود من العنق حتى الكعبين ، وتتمس رأسها في شال أسود كذلك ، ولما التفتت نحوه طالعه بوجه ناضح في أواسط العمر ، مقبول المنظر فياضاً بالأنوثة . وتأعرت حتى حاذته في مسيرته ، وقالت :

— أنت ذاهب إلى لقاء جلال بك ؟
فأجاب :

— نعم ، هذا الطريق لا يوصل إلا إلى بيته الصيفى .
فقالته وهي تتهد :

— وأنا كذلك ، ولكنني لم أبلغه إلا بعد التحايل للقرار من أعين الرقباء ..
فتساءل الشاب :

— ولكن لماذا يتعوتك من مقابلته ؟

— إنه غاضب عليّ ، وأنا مظلومة وأرد أن تتاح لي فرصة للدفاع عن نفسي ليجرى علي ما قطع من الرزق ..
فقال الشاب صادقاً :

— الحق رأيت لا أفهم شيئاً ..

— أنا أتص في النهاية إلى أسرته ، من الفقراء الذين كان يطولهم إحسانه ، وبعد طلأته أساعت إلى ألسنة السوء عنده ، فقطع إحسانه عني ، وأصبحت أخشى أن يتألى سوء أكثر ..
فقال الشاب :

— على أي حال فما أنت في الطريق إليه ، وهو رجل معروف بالأخلاق الكريمة والرحمة الواسعة ، وربنا معك ..
فقالته المرأة بقلق :

— لن يسمح لي الحفيظ بمقابلته ..

— لا تقدرى البلاء قبل وقوعه .

— أنا على يقين من تعاسة حظي ..

قصمت الشاب متضايقاً لا يحجر جواباً ، فقالت المرأة برجاء :

— لعلك صديقه ، فاذكرني عنده عما يفتش لي برباء الرجاء ، قلني يمدني بأنني لم أعثر عليك صدفة ، ولكن الله أرسلك لي لتفرح كرتي ..

كان الظلام قد أمقاهما تماماً ، فما يشعر إلا بيدها تحظف يده لتلتنها في توصل حار . والتصقت به مستغيثة به . بتلك الحركة انتقل الشاب من حال إلى حال . طيلة الوقت وهو يتهرب من تأثيرها ، ولكن التأثير استفحل في الوحدة والظلام ، وبلغ ذروته في التلاصق . إنها صاحبة حاجة ، هو أيضا صاحب حاجة ، تربطهما تعاسة من نوع ما ، ورغبات خفية . وشده الطريق وتناسى هدفه إلى حين ، فأسكرته الرغبة . ومد ذراعه فطوق خصرها فأشعل جنونه استسلامها . وجذبها إلى جانب الطريق فرأتهما النجوم التي

بدأت تومض في السماء الصافية . ورجعا إلى الإحساس
بالظلام في هدأة الصمت الثقيل . وهمست :
- لا تنسى ..
فأجاب بقنوت :
- من الأوفى أن تنتظري هنا حتى أمهد لك السبيل .
فقال بوجاهة :
- عين الصواب .

ومضى في سبيله واجما حتى اعترضه الخفير تحت تكهيبية
العنب المحيطة بالبيت الصغير ، فذكر له اسمه ، فغاب الرجل
دقيقة ثم عاد ليدعوه إلى الدخول . رأى صديقه على ديوان
في صدر المحجرة الشرقية تحت قنديل مضاء ، وبين يديه طبق
كبير فيه تفاح وجوافة وموز . قام جلال بك مرحبا به ،
فتعانقا ، وأجلسه إلى جانبه وهو يقول :

- مضى وقت على آخر لقاء ، كيف حالك ؟
فأجاب الشاب :

- نعمه على كل حال .

- لكنك لا تبدو في أحسن أحوالك .

وجاء الخفير بالشاي فراحا بحسوانه ويتساولان بعض
الفاكهة ، ويستحضران ذكريات من الأيام للماضية . وأخيراً
قال جلال بك :

- حدثني عن أحوالك .
فقال الشاب :
- الحق أنها سيئة جداً ..
- لماذا لا سمح الله .. ؟
- إني على حافة الإفلاس .
- أعوذ بالله ، ما أكثر ما تزد هذه الكلمة في أيامنا ..
- السوق راكدة ..
- والعمل ؟
- تلزمني سلفة ولا بد لي من ثمان ، هذه هي مشكلتي ،
وليس لي في الدنيا سواك .
فابتسم جلال بك وقال :
- طالما وجدت فيك المثل الصب للأخلاق النبيلة ، وما
عليك إلا أن تحضر غدا في الدار الكبير لتتهدى المسألة مع
الحامي ..

أشرق وجه الشاب بنور الأكل ونعمت :

- أنت ملاذي دائماً في الشدائد ..

فقال الرجل :

- إنك تستحق كل خير ..

وساد صمت مريح ، فذكر الشاب المرأة المنتظرة ، ولكنه
خشى أن يتجاوز بطلبه حديد النوق ، أو أن يثير استياء

صاحبه فقرر تجاهلها . ولما سأله صديقه :
- أي خدمات أخرى ؟
أجاب بحماس :

- لم يبق إلا أن أدعو لك بطول العمر .

ولما هم بالذهاب قال له البك :

- سيارتي تحت أمرك فالطريق طويل والظلام شديد .
فرحب بذلك ليتفادى من لقاء المرأة المنتظرة .

وجاء في عصر اليوم التالي لينهى الموضوع مع الحامي ،
فقابلته عم محمد وجلس معه في الشرفة الكبيرة . وسرعان
ما لاحظ أن الرجل ليس على تلقائيه المألوفة . أخبره أنه جاء
في الميعاد المتفق عليه ليقابل الحامي فقال الركيل :

- يوسفني أن أبلغك أن جلال بك عدل عن رأيه ..

نظر إليه نظرة بلهائه وتساءل :

- ماذا تعني يا عم محمد ؟

- لا محام ولا عقد ولا ضمان ..

فقال بذهول :

- ولكنه وعدني ومنانني !

فقال الرجل بوجوم :

- الحق أنك خيبت أمله فيك ..

- مستحيل يا عم محمد ..

فقال الرجل مقطباً :

- ما كان يتصور أن تفعل بامرأة من أسرته ما فعلت
بشبابية في الطريق الموصل إلى مقره وأنت ذاهب تطلب
معونه !

فدخل الشاب وخرس ، فلم ينطق على حين واصل الرجل :

- ولا كان يتصور بعد ذلك أن تتخلى عن تعهدك لها
عنده !

استمر خرسه وهو يتساءل في باطنه عما فضحه عنده .
هل فضحته المرأة اليائسة ؟ .. هل له عيون في كل مكان
توافيه بالأمرار ؟ . وقال عم محمد :

- وقال لي البك « أي إنسان فاسد ذلك الصديق الذي لم
أعرفه على حقيقته من قبل ، لا عجب أن يفلس ، ولا عجب
ألا يكون جديراً بأى ضمان ! » .

وصمت الشاب وهو يتحبط في بأس عميق ، ولكنه لم يجد
أية بارقة أمل ، ولم يستطع أن يذاع عن موقفه المخزي بكلمة .
وأخيراً غادر القرية لآخر مرة ..

فقال الرجل مقطباً :

- ما كان يتصور أن تفعل بامرأة من أسرته ما فعلت
بشبابية في الطريق الموصل إلى مقره وأنت ذاهب تطلب
معونه !

فدخل الشاب وخرس ، فلم ينطق على حين واصل الرجل :

- ولا كان يتصور بعد ذلك أن تتخلى عن تعهدك لها
عنده !

استمر خرسه وهو يتساءل في باطنه عما فضحه عنده .
هل فضحته المرأة اليائسة ؟ .. هل له عيون في كل مكان
توافيه بالأمرار ؟ . وقال عم محمد :

- وقال لي البك « أي إنسان فاسد ذلك الصديق الذي لم
أعرفه على حقيقته من قبل ، لا عجب أن يفلس ، ولا عجب
ألا يكون جديراً بأى ضمان ! » .

وصمت الشاب وهو يتحبط في بأس عميق ، ولكنه لم يجد
أية بارقة أمل ، ولم يستطع أن يذاع عن موقفه المخزي بكلمة .
وأخيراً غادر القرية لآخر مرة ..

لحظة عابرة

هوارا من حر لافح ورطوبة خانقة ، لذت بكافورينا الكوكب المكيفة الهواء . جميع الموائد مشغولة في الخلل الصغير الأنيق ذي الجدران المخلاة بالخشب والمرايا ، والجو ساحر مريح كحللم . وقفت عند المدخل أحول بعيني مفتشا عن مكان حال ومشققا من الاضطراب للعودة إلى الجحيم . جذبتني عيان في أقرب مائدة إلى . نظرت فتذكرت ولكنني ترددت . إنه ذلك الزميل القديم الذي يرى كثيرا في هذا الموقع من المدينة والذي يعد من زماني الخلل . لم تتبادل تحية مذ فارقتنا . ترى ما زال يتذكرني ؟ . منظره يقصيه بعيدا عن سكان كوكبنا ، ولكن ما معنى نظرتي نحوي ؟ . عجيب أن توجد فكرة سليمة في رأس مختل فصلت صاحبها عن بقية البشر . لما التفت عينانا ابتسمت ، فأشار إلى من يدعوني إلى مشاركته في مائدته ، فمضيت نحوه وجلست حول أن أدخل من حروف :

— أشكرك .

فقال بأريحية وبصوت متهدج تصاحبه صرخات عصبية في الوجه واليدين :

— أنا الوحيد الذي يشغل مائدة بمفرده .

- ١٠٦ -

زالت مخاوفي . لو كان خطراً مع الآخرين ما ترك حُرًا طوال ذلك الدهر .

قلت راجعا إلى الماضي المشترك :

— الجو في الخارج لا يطاق ، ولكنني لم أحلم ببقاء بعيد لي

ذكريات الماضي الجميل .

فقال بازدياء واضح :

— الماضي ! .. أنا ليس لي ماض على الإطلاق !

لم أدهش كثيرا . فنظرته تطل على من عالم غريب عن عالسا . حقيقته لا تخفى على إنسان من النظرة الأولى .

ولكنني قلت :

— أعني أيام شبابنا ..

فقال بنفس الازدياء :

— أي شباب يا هنا ؟ أنا لم أعرف حضرتك من قبل ..

ثبت إلى الواقع قانعا بالجلس الذي فزت به . حصل ما

حصل على عهد الشباب وبدء طريق العمل . كان بلا شك

سليما ، فقطع مراحل التعليم بنجاح واستقبل حياة العمل

والأمل . وتميز عنا بدخل خاص وشيء من الجاه . ولم يتأخر

عنا خطوة في اهتمامه بالحياة العامة . ولكن مضي بصدور عنه

ما يعتبر شذوذا في القول والسلوك . واستفحل الأمر حتى

- ١٠٧ -

اضطر إلى الانقضاء مأساة تذكر ، وما أكثر للآسي . قال بنفثة :

— لا أهمة للهم الذي تعجبون به ، يوجد حلم حقيقي

واحد وهو ضئول ، به على غير أهله ..

أدركت وأنا أستقبل الدنورمة التي طلبتها أن على أن

أجاريه بحكمة وطور ، فهززت رأسي هزة المقتنع . التفت

نحوي متمسلا :

— ماذا نمل ؟

فقلت بأب :

— من زمال الأبية والتعليم ..

فقال يامخفك :

— طلف .

فضحكنا ولكم نجهم قائلا :

— هذا إجرام !

فقلت كالمعتاد

— الناس لماديو في حاجة إلى ذلك .

— بهائم نالة وقعت في الشرك وعميت عن النور

الحقيقي !

فقلت ملالفا :

— هذا التو لا تنطلع إليه إلا الخاصة ..

- بل هو متاح لكل قادر على النجاة من السجن .
 - السجن ؟
 - أعني مخزن القمامة الذي تسمونه العقل !
 فقلت مدهناً :
 - صدقت ..
 ترى ألم ينتبه إلى الأحداث التي عاصرها ؟ الحروب ،
 المآسي ، الغلاء ، الديون ، الفساد ؟ تذكرت الأجيال . من
 اعتقل ومن شنق ومن هاجر ومن فسد ومن يتعذب .
 تذكرت ضحايا الأزمات القلبية والانفجارات المخفية . أكان
 الأفضل أن يهيموا في النور والمكروت ؟ أمر جدير بالثناء أم
 الخلق ؟ وألح على سؤال فسألته :
 - أنت راض عن حال بلدنا ؟
 فقال بغضب :
 - كل شيء جميل إلا الناس .
 فقلت كاعظماً غيظي :
 - حدثت أمور خطيرة ، وكل يوم تحدث ..
 - ما أنت إلا أسير للأشكال والألوان ..
 وسكت ، فاستدرك :
 - لم يحدث شيء على الإطلاق ، هذه هي المسألة !

لم أعد أحد فيه ما يشير اهتمامي . سرعان ما تجاهلني
 ساخما في فضاء المحل ، وبصفة خاصة في سقفه المزخرف
 بالنهاويل . وندت عنه إشارات كأنما يخاطب المجهول . قلت
 لنفسي إنه الطي الميت أو الميت الحسي ، ورغماً عني عقدت
 مقارنة بين غيبوته السعيدة وأرقى المرهق ، فحسدته للحظة
 عابرة .
 مجرد لحظة عابرة ...

تذكرت



عودة القرين

وقفت المرسييس السوداء أمام الكازينو . غادرتها لفام
 جمالها الملحوظ وعمرها الناضج ونظرتها المطمئنة ، وتبعها
 ولد في الثامنة وبتت في السادسة ، ثم تبعهم رب الأسرة .
 ذهبوا لتوهم إلى الحديقة الخلفية واتخذوا مجلسهم تحت شجرة
 وارفة يتلقون من الشمس دفقات متفرقة حسبما تسمح
 الأغصان المورقة بهبة طيبة يجود بها صباح خريفي رائع .
 وانطلق الطفلان نحو الجدول لمشاهدة الضفادع ومعاينتها .
 وتجرى الأمور كالعادة يوم عطلة الأسبوع حتى تناول الغداء
 ظهراً . ولعله اليوم الوحيد الذي ينسى فيه البك هموم مكتبه
 ودورة رأس المال وحساب الوارد وللتنصرف . قال الرجل
 بحبور :

- يوم جميل -

فقلت له تمام :

- يجب أن تفكر في السفر أيضاً .

- الأماكن الجميلة لا حصر لها .

ومضت الأسر السعيدة تخبء تباعاً ، حتى علت أصوات الأطفال على أصوات العصافير . وهمست لتمام في أذنه :

- ثمة رجل غريب ينظر نحوك كأنه يعرفك .

التفت نحو رجل يقف في الشرفة المطلّة على الحديقة ، حسن الهيئة يوحي منظر وجهه الطويل النحيل بالعناء ، بيده قارورة شراب ، وسرعان ما تحول وانحنى في الداخل . عرفه من النظرة الأولى ، فاعتزته موجة غاتية من الكتابة والشاؤم بددت بهجته وطمأننته . والظاهر أنه لم يحسن مداراة أثره فسألته لتمام :

- هل عرفته ؟

فأجاب متمالكاً نفسه :

- عميل لا أرتاح إليه ممن يعرضون لنا في عملنا للشعب ..

ووجد الرجل الأمل في الهروب من عينها بتصفح الصحف التي جاد بها . لكن منظر الرجل لم يفارق تخيلته . فلنه شق طريقه مثله ، وإن غيبته الطويلة نشى بنجاحه واستقراره .

وهو لم ينسه ، ولا في وسعه أن ينساه ، وكلما خطرت بباله الذكرى السوداء الدامية أطل عليه وجهه ، وثمة أمور لا يمكن أن تنسى . المهم أن منظره يخفى وراءه فليس كارثة . وبقينا لقد رجع إلى العدم ، وراح يحوم من حوله ، وعمّا قليل بهالعه بوجهه الكاخ ويمارس بأسه معه .

وفي ضحى اليوم التالي جاء مكتبه واستأذن في مقابلته . لم يجد مناصاً من استقباله كصديق قديم . دخل حجرته حزيناً يأساً كأنما تسوقه المودة والأشواق وفتح ذراعيه قائلاً :

- بالأحضان !

وتعانقنا ، ثم دعاه إلى الجلوس ، وقال :

- أهلاً .. أهلاً ، غيبة طويلة ولكنها مبررة ومفهومة ..

فقال الآخر يأساً :

- طبعاً .. شق حياة وبناء مستقبل ..

- لعلك بخير ..

- ولّى الخمر إلى غير رجعة ..

هنا ما توقعه ، وعليه أن ينتظر الأسوأ فالأسوأ . وسأله :

- لم لا صبح الله ؟

فضحك الرجل ضحكة لا سرور فيها وقال :

- أنت رجل عاقل متفوق ، اعترفنا لك بذلك ، أخذت

لصبيك لتجعل منه ركيزة عمل عظيم ، حتى صرت من

الشخصيات المرموقة ، أنا لا أمك مواهبك ، أحرزت نجاحاً محدوداً ، وتهاوتت مع الاستقامة ، وتستطيع أن تستنج الباقي ، ضاع كل شيء ، وما جاد من الحرم حتى الحرم ضاع ..

ياله من تذكير بالماضي وقبح ، ووعيد مضمر ، وتمهيد ساخر . اشتد امتعاضه ، ولكنه يجاهل تلميحاته ، وتظاهر بالأسف متمتماً :

- أبناء مؤسفة !

- في مأزقي ذكرتك فأنت نعم الصديق !

إنه يائس . وعلى قدر يأسه تكون خطورته . ولاهد مما

ليس منه بد . وقال بنبرة جديدة حاضرة على الصراحة :

- حدثني عن حاجتك ؟

فقال الآخر جاداً :

- يلزمي مال لأبدأ المحارلة من جديد ، ولكنها ستكون

عائلة مسبوقة بدرس قاس لا ينسى ..

لم يندع بأسلوبه الوعظي وتكاثرت كتابته الباطنة فسأله :

- كم ؟

فقال بمرارة مشيرة :

- عشرة آلاف ..



حدثه قلبه بأن اللعبة ستكون وأن الاستمرار لن يقف عند حد ..

بمائلها . وشرد طويلاً في غم وكآبة ، ثم قال وكأنما
 يطأ طب الأخر :
 - عد وقتما نشاء ، ستعود - إذا عدت - إلى المصير الذي
 يستحقه كلانا ..

هتف الرجل :

- عشرة آلاف ؟

- هي نصيبى فى مشروع ناجح ، إن نقصت عن ذلك
 جنبها واحداً صارت كعلمها ..
 - لكنه مبلغ ضخم جدا ..

- لا حيلة لى ، اعتبره قرضاً يرد بعد فترة مباح .

المسألة واضحة . لا يستطيع أن يرفض ولا أن يتعلل
 بالعلل ، فلينه هذا الموقف الكريه . وحرر له شيكاً وهو
 متهم . وأعطاه له ، فتناوله بامتنان ، وقام وهو يقول :

- عوفيت من صديق كريم .

فقال بلهجة ذات مغزى :

- إنه الأول والأخير !

فأخبنى الرجل شاكراً ، وغادر الحجرة بخطى ثابتة .

حدثه قلبه بأن اللعبة ستتكرر ، وأن الابتزاز لن يقف عند
 حد . الماضى لا يموت . قد شيد قصرأ من الرمال على أرض
 من السراب . لكن الأمسة البريعة التى كونها لا يجوز أن
 يمسخها سوء . فليقلته إن ضيق عليه ، وليتنجر بعد ذلك . إن
 الحفة التى ووريت فى تراب الخلاء تهيب الآن للتكميل

الرجل الوحيد

أندم إليكم نفسى . أنا إبليس . لا حاجة بي إلى مزيد .
سكائى معروفة لديكم من قديم . رسالتى فى الحياة مشهورة
كالشمس إلى يوم الدين . غمرتنى الدهشة ولقنتى الحيرة منذ
تناهى إلى أنه يوجد رجل شريف فى بلدكم رغم كل ما قيل
ويقال . وتقديما من سوء الفهم أصارحكم بأنه
لا فضل لى أئبته فى تفجر طوفان الشر الذى أغرق الجميع .
تكلفت بذلك كله بدع جديدة لم تخطر ببالى قديماً وأنا أذعن
لقدرى فأخذى ثم أستمهل . فعلت هذه البدع فى جيل
ما أعجز عن فعله فى أجيال وأجيال . كان إغواء رجل
أو امرأة يقتضى بذل الجهد وتجريب شتى الحيل . لكنى
شهدت الناس يتدفعون بجنون نحو الطارئة ، ويتساقطون
جماعات وطوائف دون أن تبس شفئى بكلمة ، أو تند عنى
حركة . انغمس الجميع فى الوحل وأنا أنظر مبهوتاً مدهولاً
ضارباً كفا على كف . أعرف بأنه عهد عظيم حقاً ، ونصر
مبين بلا جدال ، وكم تمنيت أن أكون عنده وبجره

وصاحب الفضل فيه ، ما هذا الذى يجرى ؟ من أين جاء هذا
الفساد كله ؟ أعرف مرة أخرى بأن الزمن قد تغير ، وأنه
يجىء كل يوم بالعجيب والمبهر . على من الآن فصاعداً أن
أدرس الاقتصاد والسياسة ، وأتفرس بالخطابة والتصريحات ، وألم
بالعلوم والتكنولوجيا والقلولات والعمولات ووسائل المروب إلى
الخارج . يجب أن أوسع من مجالى للتفقى وأغير وسائلى العتيقة ،
وإلا غلبت على أسرى ، وقتلت مسوغ وجرودى ، وانطوى
عصيانى الخالد بلا ثمرة أو أثر . وإذا أنا على تلك الحال من الكآبة
والخيرة أبلغتنى العيون بأنه يوجد رجل شريف فى البلد . قالوا :
- اسمه محمد زين ، مهنته قاض ، مسكنه رقم ١٥ بشارع
زين العابدين .

وفى الحال رقبته بعناية . مسكنه بيت قديم لا يليق بوظيفته .
نشأ فيه مع الأسرة ثم بقى له وحده بعد رحيل من رحل ، فاعتوره
سوا من الله فى زمن السكنى فى القفار والحمام . متزوج ، له ابن
فى الجامعة وابن وابنة فى المرحلة الثانوية . ينهب إلى المحكمة
مستقلاً الباص ، فيعائره قبل محطة المحكمة بمحطة حتى لا يرى
وهو يتماص من زحمة الركاب متأبطاً حقيقته . يفتح الجلسة فى
مباعدتها للعلن عنه ، ويتابع مناقشات النيابة والدفاع والشهود بعناية
وتركيز عجيبيين . عدا ذلك فهو لا يكاد يغادر بيته إلا حين
الضرورة ، ليواصل حراسة القضايا من ناحية ، وتوفيراً للإلتحاق من

لاحية أخرى . يست ووح العمل والتشغف فى أولاده ، فلا
يتميزون بشيء عن أولاد الفقراء . عموماً البيت تغلفه البساطة
القصورى فى مظهره وملبسه وطعامه . وزوجه تنصو فى المتعاض ،
وتروح عن نفسها بالتشكى حيناً ، ويلعن الزمن حيناً آخر . لكنه
يقول لها :

- مرتبى كله بين يديك ، لا أستطيع أن أحول للعادان الحسيمة
إلى ذهب ، ولا أسأل عن الغلاء الضارى ، وأخيراً فإتنى أعيش فى
رحاب الله وأصون ذاتى عن التلف حتى النفس الآخر ..
رجل كبير ومسكين معاً . تحديق به المفريات من كل
حالب كالماء والطواء . إن عز على الاقتحام فأمامى الزوجة
والأبناء . ثم إنها أسرة واعية تماماً بما يدور حولها . إليك
حديثاً دار على انفراد بين الرجل وامراته . تقول :

- أى أرض هلته الأرض ! ، أيكذب علينا كل هذا العناء
لا لشيء إلا لأننا شرفاء !
فيقول بجزم قاطع :

- هذا نصيب الشرفاء فى الزمن الجهنمى ..

- الجميع لصوص ، أنت تعرف ذلك جيداً .

- أى نعم ، الجميع لصوص .

- والنهائية ؟

- لا أملك إلا الصبر ..

إته اعراض على ما يجرى واحتجاج على الشرف في آن .
الاية نفسها نسمع الكثير ، ونقرأ الصحيفة ، ونقف طويلا أمام
الحوادث . تسائل : هل تبسر الزواج في هذه الظروف
القاسية ؟ لن نعتبر على أن أسوق إليها شابا غاربا ، أو زميلة
ذات خبرة بالشقق المفروشة . ولكن الشايفين يقفان على حافة
التمرد :

- للصوص آمنون ، يعيشون فوق القاتون ، القاتون مسكين
ولا يطبق إلا على للمساكين ..

- الأبواب مفتحة لأبنائهم ، ولحم وحلهم الفرض الطيبة .

- ولنا المعاناة والكلمات الكاذبة المعسولة ..

- أبونا رجل شريف ، وقاض شريف أضعف من مجرم غنى ..

سررت بما سمعت وتخفرت للعمل . كل شيء يتم في دنياي في
ثوان . وبدت مهتمتي غاية في السهولة . استحسننت أن أتجاوز
الرجل إلى أبنائه . على من يريد أن يقتحم حصنا أن يبحث عن
موضع ضعف في سوره . في هذا ضمان لمأساة أفجع وأشد .
واندلعت في قلبي النشوة التي تسبق العمل . لكنها ارتطمت
بشيء ما . ما للسرعة وما للغرابة . شيء ما كرايحة مجهولة
المصدر . تراجت النشوة كاللوجة المنقهرة عن الساحل وسقطت
في القنور . فتور كانه الإحباط وكأنما أحجل من نفسي لأول مرة
في تاريخي العريق . ترددت ولم أكن أتردد أبدا . أحجمت ولم

أكن أحجم أبدا . ما لثني في معركة ، النصر فيها جلاب للسحرية
والهزيمة محققة للعار . كلا يا إبليس . ما هو بالقنور فقط ولكنه
الزهد . لم أصادف تجربة كهذه من قبل . سأتركك يا سيد محمد
لشأنك وظروفك أنت وأسرتك المعذبة . لست سعيدا فتحسد
ولا أنت متحدي تستنفر . لا أحد يحبك . لا أحد يعطف عليك .
يضمرون لك الشر ويبتون لك أسوأ النوايا . إنني تاركك .
سأتابع أخبارك من بعيد . مستغل في حياتي نقطة سوداء ، وإذا
سئلت يوما عنك أجبت :

- هذا الرجل زهد إبليس في القيام بواجبه .

العودة

أى عالم هنا ؟

ينظر فيما حوله بعجب . كأن القيامة قد قامت . تغيرت معالم الطرق وتبدلت حالاً بعد حال . هذه العمار الضخمة متى حلت محل البيوت العتيقة الشهلوية . والسيارات المتظفرة على الجانبين ، والمركبات المتطلقة كالتقلاع . والزحام .. الزحام .. الزحام . متى ولد كل هؤلاء ، متى نموا وتربوا على عرش الشباب ؟ ها هم يمشون الأرض بأقدامهم محدثين ضجة كبرى . هل حدث ذلك كله على مدى خمسة وعشرين عاماً ؟ للمسافرين المستحلون جايوه في السجن بمعلومات حديثة ولكنه لم يصدق أو لم يستطيع أن يتخيل الواقع ، ولكن ما يراه اليوم يذهل الإنسان عن عقله . ويتساءل يلقى . ترى ما شأن الحارة ؟ قد تحفظ الحارة بطابعها وتحدى الزمان . سيحلها كما تركها منذ ربع قرن . وسيجد رجاله في انتظاره ، وستطلع إليه الناس بانتهار وسرور ، وستقبلونه بالزغاريد ، ويتبادلون التهاني لعودة فتوتهم . أجل طعن الرجل في السن ، ولم يبق في رأسه شعرة واحدة ، وتخلت عنه قوته ، ولكن الفتوة هيبه ومقام وشجاعة . في سبيل الدفاع عن كرامتهم فقد عينه اليسرى ، وقضى في السجن تأييداً ، فأى

- ١٢٦ -

إنسان يمكن أن ينسى ذلك ؟ . لم يعد له أهل في مصر ، وماتت زوجته منذ خمسة عشر عاماً ، فانقطع ما بينه وبين الأهل ، ولم يبق له إلا رجاله . في الأيام الغابرة كانت تتبعه الأبصار أينما حل وتعلق به الرجال الأشداء ، وعندما يهل على الحارة ويتبته الناس إلى عودة الغائب ستقلب الحارة رأساً على عقب ويرجع كل شيء إلى أصله فتسلو الأيهم وتصفو .

واستحق للبدان وحاز عتبة الحارة . انتضخ وشملها بنظرة جامعة . هي هي والحمد لله بيوتها العتيقة الصغيرة للتلاصقة . بيت واحد هدم وقامت مقامه عمارة ضخمة مثل العمود . الكتاب القديم باق ولكن سقفه تهدم وبابه نزع . لكنه لم يعثر على وجه واحد من الوجوه القديمة ، لا بين للورة أو العاملين في الدكاكين . محل كسواء مكان محل عم سليمان يباع الطعمية . للمقهى في مكانه ، ولكن يديره شاب ينطلقون وقمص ، وأعدت كراسيه صفوفاً لتشاهد مباراة كرة القدم في التلفزيون . لا يعرف أحداً ولا أحد يعرفه . أين الرجال ؟ . أين الاستقبال ؟ . تلاشت كما تلاشت أيام العمر . مسار في الحارة من أوها لآخرها ومن آخرها لأوطها ولا حياة لمن تنادي . ودق كثيراً من الأبواب سائلاً عن أصحابها فأجابهم قوم أغراب لا يعرفونه ولم يسمعوا عن يسأل عنهم . كأنه لم يكن فتوة الحارة وسيدها وحاميها ، بل ولا واحداً من سكانها . لقد تسلق إلى المعركة المشنومة دفاعاً عن أحد أبناء الحارة حين تعرض للأذى في حارة بجاروة . أين رجاله ؟ . أين الشجار الذين

- ١٢٧ -

جاءهم بقوته وجبروته ؟ . كيف لا يذكرهم أحد ، أو يقوله بيتاً عن أسلافهم ؟ . وشعر بضياح لم يشعر بتخله في السجن نفسه . وقال لنفسه « ما أنا إلا ميت » . ودنا في تحطه من زاوية سيدى الصبان ، فلمح عندهما جالسا على بابها ، غيره الزمن ، ولكنه لم يح مع معالنه ، فاستخفه الفرح وهرع إليه قتلاً :

- يا شيخ ..

وليس له أنه نسي اسمه فارتبك ، ولكنه دارى أرقباكه بأن احضنه وقبله وهو يسأله :

- ألا تتذكرنى ؟

ففحصه الرجل بعينه الذابلتين ثم هتف :

- للعلم زيد ..

- جزاك الله كل خير . أنا للعلم زيد .

فتمتم الرجل :

- إن منع العسر يسراً .

فسأله بجواره :

- أين الرجال والجيران فإني لم أجد منهم أحداً .

- الرجال والجيران ! ، سبحان من له الدوام .

وجلسا معا على باب الزاوية ، وراح يسأل والآخر يجيب .

القبية في حياتك ، ربح أموالاً طائلة ، وهاجر إلى حيث لا نعلم ،

لا أعرف عنه شيئا ، البقية في حياتك .

أما عن أعوانه القدامى فقال الرجل :

- بعد للعركة إياها ضيقت الشرطة عليهم ، ففرقوا إيشاراً
 للسلامة والله أعلم بهم .
 فتسائل الرجل بصوت حالم :
 - ألا يمكن الاعتداء إليهم بالسؤال والبحث ؟
 - قيم تفكر يا معلم زيد ؟
 - غريب بلا مأوى ولا رزق يبحث عن رجاله !
 - يا معلم ، الدنيا غير الدنيا ، والزمان غير الزمان ، غير
 أذكراك ، لا فتوة اليوم ولا فتوة ، حسبك أنك قضيت زهرة
 عمرك في السجن ..
 - وكيف أعيش يا مولانا ؟
 - أي عمل يصلح لك في هذه السن ؟ .. ومن يتبع ثقته لخارج
 من تأييده ؟
 وتفكر الشيخ ملياً ثم واصل حديثه :
 - أتريد رأيي حقاً ؟ ، طيب ، توجد مهنة وحيلة ، شريفة
 وميسرة للرزق ..
 فتسائل الرجل بلهفة :
 - ما هي ؟
 - مسح الأكلية ولامواحدة !
 فهتف الرجل :
 - الأكلية !

- حلمك ، الغضب لا يحل للمشاكل ، الأدوات رخيصة ،
 وإلتانها يسير ، ولا يجرّد شخص اليوم بغير حذاء ، والمسحة
 بالشئ ، الفلاحي ..
 - أنا .. أنا زيد ..
 - اعقل ووجد الله ، لا أحد اليوم يعرف زيد ، العمل يناسب
 منك وصحتك ، ولن يتعلم عليك مهما تقدم بك العمر .. ماذا
 قلت ؟
 فقال باستعاض :
 - بلومنى وقت لتفكير .
 فقال الرجل بوضوح :
 - لا تهدد وقتك ، الزمن لا يرحم .
 نادت عن الرجل ضحكة حافلة مياغنة كالعطسة ، ووزن في
 سمعت حزين بين السيادة التي حلّم بمعارضتها على الحارة وبين
 مسح أكلية أبنائها . ولكنه لم يرفض ، وقال للشيخ بأسمى :
 - لو خفنت هذا المصير من قبل لارتكبت أى جناية فى السجن
 لأضمن بقاى إلى نهاية العمر ..

(القرار الأخير)



أعرف بيوت الشوارع كلها . هي من الخارج واضحة مميزة
 كالوجوه البشرية ، ومن الداخل فهي غير محجوبة عنّا ولا موصلة
 من وجوها . نذهب ونجى ، ونلعب بين صفيين منها ، ونحكم
 حلالة سنا فتحت لنا أبوابها دون حرج ، وأبنا الحريم ، عشقتنا من
 بعد البنات الصغيرات ، ونعمنا بقبيلات الهوام . إلا هذا البيت
 الذى يطل مباشرة على شارع العمامية ، بطابقه الواحد الكبير
 وحديقته المخططة بأركانته ونوافذه المعلقة غالباً أو تفتح إحداها دون
 أن يلوّح فيها إنسى .. ونسأل بيت من هنا ؟ . فتسمع أنه بيت
 المستشار ، لا أذكر أنى رأيت ، ولا رأيت أحداً من ذويه . ترى
 أهر وحيد ، أهر صاحب أسرة ؟ . وفهمنا بطريقة ما أن رجال
 القضاء من طينة أخرى غير طينة البشر ، فبحكم عملهم الخطير لا
 يتخلطون بالناس ، ولا يترددون على المقاهى ، ولا يقيمون وزننا

بيت المستشار



وكثيرا ما تظهر هيام في التافهة لتشمس أو تلمس في الشرفة

للحجرة . والحق أن البيت وصاحبه وما عرف عنه ملاً نفوسنا هية ورهبة للقضاء ورجاله ، فاعتبرناهم نوعاً خاصاً ممتازاً يشغل منزلة خاصة فوق البشر . وصاحبنا ذلك الشعور ونما مع الزمن ، حتى صارت كلمة للمستشار تعادل في درجتها الأمير أو الوزير أو الزعيم أو تفوق عليها جميعا . ويوماً قلنا لصديقنا سليمان :

- أختي هيام خطيت ..
- فباركنا له ، وتذكرنا البيت الصغيرة التي منعت من اللعب معنا منذ سنوات . آية في الجمال وصورة طبق الأصل من أمها الشرسية ، فأحياناً كنا نلمحها في السيارة الكبيرة التي تحملها إلى مدرسة سان جوزيف . وتسايل صديقنا :
- أتعرفون من يكون خطيبها ؟
- فلم نثر جواباً فقال بفخار :
- المستشار !
- وبهشة قلنا :
- صاحب البيت إياه ؟
- جون غوره .
- ما عمره ؟
- ليس شاباً ، يمثل بابا في السن تقريباً .
- وشكله ؟

- خيف ، فصور القامة ، غليظ الشارب ، أشيب الشعر ، وهو نظارة كحلية ..

- ووالدك وافق طبعاً ؟

- طبعاً ، ولكن أختي لم توافق .

ولم تخف دهشتنا فقال :

- أخيراً أذخنت لمشيئة بابا وماما ..

حسدناه على الحظ الذي حص به . سيكلف صديقنا المستشار وسيلفقه المستشار . وسيفتح له البيت الغامض أبوابه . ولكن صورة المستشار اهتزت بعض الشيء في وجداني . ها هو يخرج من عزله المقدسة ، ويسعى إلى بيت صديقنا الذي لا يختلف عن بيت أي واحد منا . وينزود إلى أبيه الموهل الصغير مثل أبي . ويطلب منه القرب منتسماً في حياة وأدب . بل رفضته العروس أول الأمر ، فلم يعجبها سنه ولا منظره . وإذنا فهو بشر مثنا ، يجري عليه ما يجري علينا ، وإن يكن في سلطته أن يرسل أياً منا إلى المشنقة . ورأيناه بأعيننا يوم كتب الكتاب وهو في الغاية من الأناقة والوقار . ولأول مرة تسيل بمران البيت الغامض بالألوان ، وبجىء المدعوون أشكالاً وألواناً ، ولأول مرة تطلع الزغاريد ، ويترامى إلينا صوت صالح عبد الحمى وهو يردد « افرض حبيك هجر » فتوقع آهات الامتحنسان من جناح حررتها الخمر من حياتها . واهتزت الصورة مرة أخرى ، فقلت إن المستشار عريس لا يختلف عن بقية العرسان . يضحك ويشرب ويغرب ، وتخلته في مخدع الزفاف مثل كل الرجال . سيضطر مع الزمن إلى التعامل مع زوجته كما

يعامل مع نصوص القانون المقدسة ، فيذعن لمشيئتها وبعضى عين زوجها . وحدثت ثورة في كيان البيت ، فتحت نوافذه نهاراً لتستقبل الهواء والنور ، وأضيات ليلاً لتوحب بالزوار من الجنسين . وكثيرا ما تظهر هيام في التافهة لتشمس أو تجلس في الشرفة . وكان يلمس معها في العصارى فرأناه ، في الخلاب والروب ، أو عملها الصورد إلى زهرة أو زيارة . ولكن الاستقرار لم يدوم طويلاً . حمل إلينا الخمس أن هيام رجعت إلى بيت أبيها غاضبة معلقة فمردها . ولكن المستشار لحق بها مصراً على الصلح . قال سليمان :

- لاملها بكل حيلة حتى رق قلبى له .

واستأنفا حياتهما الزوجية كما كانت .

وتسايلنا :

- إذا كانت هذه هي البداية فكيف تكون النهاية ؟

ولم تكن تلك من التجارب إلا ما تمدنا به السينما ، فتصابت لأهنا للنساء قبل أن تقع .

واهتزت الصورة الاهتزازة الأخيرة . بت أرضى للرجل الذي أملت يوماً أن أرمق بيته بإسبال لا يكون إلا لأماكن العبادة .

الرجل القوي

اعتقد السيد طيب المهدي ساعة من الزمان أن مهمته في هذه الدنيا قد انتهت ، وغغم في ارتياح عميق وأسى عفيف « الحمد لله رب العالمين » . تسلم تأمينا حمنا ، ومعاشا لا بأس به ، وهو يقيم في شقة عمليكة بمدينة نصر فاز بها منزلة عن حنطة غير قصيرة في الخارج ، وتزوجت بنته الأربع ، ولم يبق له إلا السمر مع زوجته وموانسة التلفزيون وقرابة الصحف وسماع القرآن في إذاعته الخاصة ، فأى غرابة في أن يعتقد أنه أدى رسالته في الحياة على أحسن وجه ؟ ، لكنه لم يدرك شيئا مما تحبته له الأيام ، فرأى ذات ليلة فيما يرى النائم رجلا يهوى الطلعة ففاض الأنوار يرغل في ثوب ناصع البياض ويقول له في حنان :
 ... من هذه الساعة وحتى يشاء الله تستطيع أن تقول للشئء كن فيكون ، فافعل ما يحلو لك .

وتسائل لما صحا من نومه عن تأويل حلمه ، ولكنه سرعان ما نسبه كما تنسى الأحلام . العجيب أن الحلم تكرر بخلافه في الليلة التالية واليالي الأخرى ، حتى شعر بأن في الأمر سرا .
 (القرار الأخير)

ورأى من الحكمة أن يحتفظ به نفسه ، فلم يبح به ولا لست هنية رفيقة عمره . وفي الوقت نفسه تلقى دفقة قوية من مطلقه ملائمة ثقة وإلهاماً وحبوراً . لم لا ؟ . إنه رجل طيب ، أخطأه حقوات تعثر ، ورج متدين ، محب للخير ، عاش حياته ورغم تواضع شأنه وكان يحمل هموم الدنيا والناس . ومن شدة إلحاح الحلم عليه ومطاردته له قرر أن يجرب قوته سرا . فذات مساء وهو يتابع مناقشة في القناة الأولى للتلفزيون ، وست هنية في المطبخ ، طلب أن يتصل الإرسال إلى القناة الثانية ، وفي الحال ودون أن يسرح مجلسه احتضت القناة الأولى وظهرت القناة الثانية عارضة فيلما أجنبيا . ارتعد الرجل من عطف ذموله واجتاحت حواطف متناقضة من الخوف والفرح . أراد أن يتأكد من قوته فراح يجربها بين القنوات ، وفي رفع بعض المقاعد في الفراغ وإعادتها إلى مواضعها الأصلية ، حتى اطمان إلى المعجزة التي لوتها . وسلم أن مغزاه فوق مباركة ، ولكنه أدرك أن مهمته في الدنيا لم تنته ، وأنها لم تبدأ بعد . تذكر أسلامه الطيبة لوطنه والدنيا التي كانت تضى وتتلظى في ثوان ، الآن أن لها أن تتحقق ، وسيتم إصلاح الوجود على يديه ، دون جزاء واعتراف بفضلته ، ولكن حسبه أن يلبى هوائف قلبه التي واكبت عمره الطويل ، وأرقت نومه وصحوه . وفي معابد ذهبه إلى قهوته ، ارتدى ملبسه ، وغادر مسكنه كالعادة ، طابوا بين جوانبه قوته الجديدة ، متوكلا على الله . أشار

إلى الأكسي ليحملة إلى قلب المدينة ولكن السائق لوح له بيد رفضة متعسفة ، وواصل سبوه غير مبال به . ومع أنها لم تكن المرة الأولى إلا أن غضبه هذه المرة كان أشد . مال لحظة إلى أن يصعقه في محاولة من حوادث الطريق ، ولكنه جمع غضبه وقال لنفسه : « من يوجب قوة مثل قوتي فعليه أن يوجهها للخير » . وركز بصره على إطاري السيارة الخلفيتين فانفجرا دفعة واحدة مثل قنبلة . وركن السائق السيارة ، وراح ينقل عينيه بين الإطارين ويضرب كفا بكف منشكيا « الاتنين في وقت واحد » . شعر بأنه أذبه ولقته فرسا ، ولكن هل بحر الدوس كأنه لقيط المصادفة ؟ . ومر بالرجل واللى عليه نظرة ذات معنى وسأله « أيمن أن أعلنك ؟ » ولكن الرجل أعرض عنه حائقا حائقا . وبلغ محطة الباص فوقف تحت مظلتها . وجاء الباص مكتفلا بالخلق ، فرأى صراعا ناشبا بين سيدة ورجل يقف ورئعا . لم يسمع ما يدور بينهما ولكنه درس أبعاد الموقف . وما يدري إلا والرجل يلطم المرأة على وجهها في تهور فاق كل تصور . واستغزه الحدث فسلط غضبه على معدة الرجل فأصابها مغص شديد حاد مياغت جعله ينحني من شدة الألم ويتأوه صراعا ، فلم يتحرك الباص حتى حُمل خارجه حتى يجبه الإسعاف . وأكثر من صوت ارتقع قائلا : « يستاهل .. جزاء سوء أدبه ووقاحته » وراقب طيب المهدي المنظر بارتياح مطمئنا إلى أنه يؤدي واجبه على خير وجه . وفي طريقه إلى

المفهي قدم خدمات تذكر ، صادف مطياً غائراً فسواه ،
 وأحكم إغلاق صندوق كهربائي ، ورفع كوما من القمامة ،
 وجفف عطفة من مياه الخاربي حتى آمن كثيرون بأن صحوة
 حقيقية تسرى في أعصاب الدولة ، أو أنها انتقلت من
 الصحوة إلى النهضة . واتخذ مجلسه في القاهرة ليحف رأسه
 بفنجان قهوة . وانتبه إلى ما يذيعه الراديو ، وإذا تمتحدث
 يستعرض جملة من الإنجازات الموعودة للمستقبل . امتعض
 السيد طيب وناوشته وعود مماثلة وتصريحات أسعدته زمناً ،
 ثم لم تخلف إلا الإحباط ، فضاق صدره بالمحدث وقال مخاطباً
 الرجل عن بعد « تكلم عما تم إنجازه لا عما سينجز » ، وقال
 لنفسه إن هذا الرجل لن يوقفه عن الكلام إلا العطس .
 وعطس للمتحدث عطسة مباغتة قطعت حديثه فصمت . لعله
 كان يخفف بمخديله فاه وأنفه . وهم بمواصلة الحديث فقطعته
 عطسة أشد من الأولى . ولم يستطع بعد ذلك أن ينطق بجملة
 مفيدة واحدة ، فالعطسة تنف له بالمرصاد حتى اضطر إلى
 الاعتقاد بمرض طارئ ، فغير المذيع البرنامج مذيعاً أغنية
 طوف وشرف . وسكر الرجل بنشوة الارتياح والتصر .
 سيظهر الإذاعة السمعية والموتية مما لا يليق برسالتها الحقة .
 وسيوقف أى كلام لا يعجبه بالعطس والزغطة والإسهال
 المباغت ويكون الرقيب الشعبي الصادق على جهاز الإعلام

المطهر . عند ذلك لمح المدعو سليمان بك الجمالوى وسط
 مريله وممايكه غير بعيد من مجلسه ، يتقربون إليه بالملق
 والبال فنبه كزوا وخيلاء . إنه تسرى من أثره الانتفاح ،
 ولكنه محسوب على محمودى الدحل أمام مصلحة الضرائب .
 عظيم .. عظيم .. يا سليمان بك ، اذهب من فورك إلى
 مديرية الضرائب تائباً نادماً وأذ ما فى ذمتك من ضرائب تبلغ
 الملايين . وضجة قام الرجل إلى سيارته فى الخارج . فرك
 السيد طيب يديه حورا . سيكون الرجل غدا حديث
 الصحف تضربه مثلاً ليقظة الضمير ، وعندما يرجع إلى فيلته
 سيسأل عما دهاه ويضرب رأسه فى الجدار .

و حرب معجزاته بقية اليوم والأيام التالية فى أماكن متفرقة
 كيما اتفق ، فطاف بمسشفى ولادة وجمعية استهلاكية
 ومصنع للأدوات الكهربائية وغيرها وغيرها ، فكان بلاء
 ولقمة على فريق ورحمة للكثرة من الخلق . وحينما حل
 خلف وراءه دهشة وحيرة للفريقين ، وتساءل كثيرون :
 كيف يتغير الناس من التقيض إلى التقيض وماذا حدث فى
 الدنيا ؟ ، هل يمكن أن تستقيم الأمور فى هذا الوقت القصير
 وفقون مقدمات ١٤ . غير أنه شعر فى الوقت نفسه بأن الأمور
 لا تصحح أن تسير بلا تخطيط واع . وفتشى دليل المصالح
 الحكومية والمصانع والشركات ، ومضى به إلى حديقة الشاي

بحديقة الحيوان لرسم خطة شاملة . المصالح الحكومية وكر
 البيروقراطية ، مراكز الإنتاج والخدمات ، مجلس الشعب ،
 السجون وما يقال عنها ، الصحف ، الأسواق ، الأحزاب ،
 المدارس ، الجامعات . كل خطوة يجب أن تسم بتودة ، كل
 اعوجاج يجب أن يقوم ، كل انحراف يجب أن يسردع ،
 وعندما يفرغ من وطنه يلتفت بحماسة إلى العالم . المهمة
 المضطلع بها ثقيلة ومتشعبة ، ولكن القوة التى تملكها هى
 معجزة الدهر . وشيء جذب انتباهه فى مدخل الحديقة فرأى
 امرأة قادمة لتجلس إلى المائدة التى تليه مباشرة . جميلة
 وجذابة ونسجة من أحلام شبابه الدابر . اقتحمه شعور
 بالرضى ، وثار انفعاله للدرجة لم يجدها قط منذ تزوج من
 ست هنية ، فضلا عن الزهد الذى خشيه منذ طرق باب
 الشيخوخة . وعجب لا يجذبه غير المتوقع . حقا إنه الجذاب
 غير عادى لا يتفق وانفعاله مهمة تسره بها الجبال . إنها لم
 تنبه إليه ألبتة ، وسرحت بعينها التحلاوين فوق مسطح
 البحيرة الخضراء والبط السابح ، فهل يخطر ببالها أنه يستطيع
 أن يسيطر عليها فى ثوان فيقبلها ظهرا لبطن ؟ . وتردد طويلا
 قبل أن يعت إليها برسائله الخفية . فى الحال تطلعت إليه وبظفرة
 مستحبة توشك أن تنطق . وتحول انجذابه إلى نشوة فاستسلم على
 رغمه . هل من ضمير لمن يرغب فى إصلاح الدنيا أن يهتم أيضا

بإصلاح ذاته ؟ . ومن خلال إستراتيجية متبادلة نسى دينه ودينه ،
 فأغلغ دغره وقاما معا مسلمين تقدرهما .
 وعندما رجع إلى بيته مساء كان قد شاب إلى رشده
 وأدرك أنه أخطأ . ولاحظت ست هنية أنه ليس فى مرحلة
 المألوف فزعم أن نزلة برد آلت به . ومع أنه لم يفكر أبدا فى
 معاودة الخطأ إلا أن الكندر لم يفارقه . الأدهى من ذلك أنه لم
 يعد يخلص بالثقة الباطنية التى أسكرته طويلا . وأراد أن
 يهرب نفسه - انتظر حتى غابت ست هنية لبعض شأنها
 وتوجه إلى التلفزيون كما فعل مرارا .
 لم يستحب التلفزيون له ومضى فى سبيله .
 حين جنونه .

أعاد التخريب فلم يبق إلا الحية .
 ثلاثت المعجزة كحل .
 الندم لا ينفع ، الحسرة لا تنيد ، التوسل لا يجيدى .
 يركبه حزن ثقيل لن يفارقه حتى الموت .



إنه عيد الميلاد . عيد الحياة المتحددة . يجمعنا البهيو الكبير
فدفعه عواطفنا في عز الشتاء . حول كل ما لذ وطاب من
ما أكل ومشرب وعذب الألسان . نجسى فرادى وأزواجنا
وجامعات . يسوقنا الحب ، وتربطنا المعاشرة الطيبة ، ويؤلف
بين قلوبنا تقارب الأمزجة . لسنا في حاجة إلى مطربين أو
رقصات ، ففينا من بحسن الغناء ومن يجيد الرقص . ما هي إلا
الطلاقة تعبير عن فرحتنا بالحياة . أما عن السمر والمزاح فحدث
ولا حرج . ويضوع للمكان على سمته بشنا الزهور ويتألق
بالسرور والرضا . وتمتد السهرات حتى مطلع الفجر ثم نحضي
في الانصراف كما تتابعنا في الحضور ، يجفون أنقلها الشيع ،
وحاجر أرقها الصخب ، وأحلام نحن إلى النوم السعيد .
- نسقم ألا يفرقنا إلا هادم اللذات . وهو بعيد فيما يبدو ،
ويوشك أن يضي علينا الأمان . أحل نحضي الأيام ينكمش
العذب وتختفي وجوه . للعمر حكمه وللظروف حكمها ، وهل
دلم إلا الدائم ؟ . وفي غمرة السرور وحرارته تتناسى الحسائر ،
ونرضى بما قسم لنا ، مع شيء لا مفر منه من الحسرات :

البهيو

ذلك الوجه الجميل الساحر !

- وسدبقتها التي لم تكن تكف عن الضحك .
- وصاحب اللعبة العالية الذي نصب نفسه مايسرو لكل حفل .
وتفلسف ونقول إنها الحياة ، علينا أن نقبلها كما هي . منذ
عهد آدم وهي تتعامل مع الناس هكذا ، فما معنى الدهشة ؟
ولكن انتهى الخلل بأن فرغ البهيو من أبطاله . اليوم لا يجيء
أحد . لا رجل ولا امرأة . وأنظر وأنظر لعل وعسى ، ولكن بلا
فائدة . ضقت برحمتي كما ضاقت بي . ولا علم لي بما يجري
وراء مجال البصر . لم تق إلا خيالات محطية في نوايب الذاكرة .
أحيانا أصدق وأحيانا لا أصدق . ليس في القلب إلا كلمات
وحروح . وعطف على ذلك الذي يقيم في داخلي فسألني :

- هل أخورك بالحقيقة ؟

فقلت :

- تفضل .

قال :

- قبض عليهم جميعا ، الحارس يزدى واجبه ، وأنت
بدلك عليهم .

- ولكنهم مختلفون فكيف يقبض عليهم بلا تفرقة ؟

- إنه لا يبالي بالفوارق .

فنتسائلت في امتعاض شديد :

- ترى متى يفرج عنهم ؟

فأجاب بصوت حاسم بارد :

- لن يفرج على أحد .



أنا لا أنصب إلى الناس لألقى القبض عليهم ، ولكنهم هم من الحقيقة الذين يجبرون إلى أتص

آه ، إنه يعنى ما يقول . لن يفرج عن أحد منهم . وها هو زمن
الوحدة يتجيم ويستطيل . ولم يقف الأمر عند ذلك الحد . الحركة
دائمة لا تتوقف . وكنت أراقب فراشة تنور حول مصباحي حين
همس في أذني :

— حذار .. إنهم يتحرون عنك !

حقاً ١٩ . لا بد من صنع شيء ، وإن طال السفر . ولم يمسنى
الجزع كما كان يفعل قديماً . وأصغيت إلى همسه وهو يقول :

— ثمة فرصة للنجاة ؟

أصغيت بيلاً مبالاة . إنه يجرؤنى على المستحيل ، وكثيراً ما
يعابتنى . ولم أشعر بأى خوف أو احتجاج . ولم أحفل من
سرور غريب . قلت :

— لا ..

ومضيت أعد حقيتي ..

وأرأوح بين إعداد الحقيبة وبين التسلى بمشاهدة الرائع والغادي .
أثف في روبي انتفاء لبرد الشتاء ، أثف وراء زجاج النافذة ،
الأرض لامعة مظلمة بعصون الأشجار ، والسماء متدثرة بالسحب ،
وعيناي تزفبان . أكثر من مرة أراه وهو يعبر الطريق بقامته القارعة
التي لم ينها الكبر ، ولكنه لم يقصد بيتي بعد . في صباي خدعت
بصدقة أبي له وثمته عليه ، ثم ماذا كانت النتيجة ٢٠ . ذلك الرجل
العجيب . في فترة الخناعي بما بين أبي وبيته صادفته في الطريق
قريباً من بيتنا . وبكل برائة دعوته لزيارتنا كما يقضى الأدب
فاتمم قائلاً :

— ليس اليوم ، شكراً لك يا بني ..

طالما تحمر الناس بين سمعته الطيبة وفعاله القاسية . وفي حديث
صباحي سأله الصحافية عما يوجه إليه من اتهامات فأجاب :

— إن أردى واجبي على أكمل وجه .

فأشارت إلى ما يقع من ظلم أحياناً فقال :

— عملي يتسم بالعدل المطلق .

— ألم تؤد واجبك مرة وأنت كاره ؟

— أبداً ، إنى أنفذ قانوناً كاملاً العدل .

— ثمة حوادث تستحق التفسير ؟

— لو دخلنا في التفاصيل الفقهية فلن نستطيع القراءة معي صبراً !
واختتمت الصحافية الحديث بالتزوية بطمأنينته الكاملة .
فذاك الرجل الذي يفتح اسمه الرعب في الأقدسة . الذي قال
مرة جهراً :

— أنا لا أذهب إلى الناس لألقى القبض عليهم ، ولكنهم
هم في الحقيقة الذين يجيبون إلى بأنفسهم .

كما أنكز بشدة جميع ما يقال عن التعذيب الذي يمارس في
السجون .

ها أنا أثف وراء زجاج النافذة أترقب ، في الدقائق
الفصار التي أستريح فيها من إعداد الحقيبة ..

ذوو الدخل المحدود

دهمنا الانفتاح كالطوفان . أناس طفوا فوق سطح الماء الغادر
وأخرون مضوا يغطسون نحو القاع . بادئ الأمر فرحتنا لانهمزام
الانغلاق . قلنا : ولت أيام الحصول على علية نقاب بالطباير
والبطاقة وتسول الأخرية من المحسنين . ولكن رويداً رويداً تحرك
القلق جواراً وراء الخوف ، وأخذت تكاليف الحياة تتجههم
وتكثف عن أنيابها . ولأول مرة عرفت اسم طفتي الجديد في
العهد الجديد ، وهو ذوو الدخل المحدود . قبل ذلك دعينا
بالبحر حوازية أو الطبقة الوسطى ، وقالوا عنا إننا العفة الكتود في
طريق البروليتاريا المبشرة بالغد . اليوم البروليتاريا تصعد ، وذوو
الدخل المحدود يرددون في نفس واحد : عشنا عليك يارب .

وأذهب ذات صباح لأحلق شعري فأجد اضل مغلقاً ، ثم
خبرني أهل العلم بأن صاحبه بلعه ضمن عيالي وأنه يعد الآن
ليكون بوتيكاً . في علم واحد ترددت في ثلاثة شوارع رئيسية

على حلاقين سرعان ما يتخفون كالأول ، حتى تسابقت : ترى كيف تعيش مدينة بلا حلاقين ؟ وما الخيلة لو تبعهم الحانوتية والزبانية ؟ وسأفنى الانفتاح أكثر في المكتبات التي كنت أمزائل الكتب في معارضها الخارجية ، فقد كتب عليها نفس المصير وتحول غير قليل منها إلى محال أحذية ، حتى قهرتني المفضلة اقلبت مطعماً . هكذا تحسنت أحوال البروليتاريا وأصبحت طبقة جديدة ذات شأن ، وتدهورت الوسطى في منحدر التقشف وراحت تفكر في وسائل دفاعية جديدة تناسب العصر وتقننى في حدودها برجاله العظام .

وفرغ من فرح ، وحزن من حزن . وكان عم محمود العجوز من الخرونيين . إنه صاحب محل صغير لتصليح الأحذية وتلميعها . يجلس في عمق دكانته المستطيل وراء ماكينة الخياطة ، ويعاونه ثلاثة شبان لمسح الأحذية يجلسون صفاً أسفل الكراسي المتحركة . ربما أنه في طريقى اليومى فبانى زبونه من قديم . وذات يوم غاب أحد العمال ، ولما طال غيابه سألت عنه فأجابنى العجوز بصوت لا يكون إلا لأصحاب الأفواه الخالية :

- سافر إلى الخليج لتحسين الأحوال .

- وهل هم في حاجة إلى مسح أحذية ؟

- الأعمال كثيرة والأرزاق على الله .

وعقب مرور شهر اختفى العامل الثانى جرباً وراء المسدس نفسه . وبطبيعة الحال انصرف زبائن كثيرون عن المحل ، وحللت أنتظر دورى لمسح الحذاء كأثنى فى طاوور جمعية استهلاكية . ثم

ما لبث الثالث أن لحق بزميله ، فاضطر عم محمد العجوز إلى هجر ماكينة الخياطة والجلوس لمسح الأحذية . سأله مرة :

- لماذا لا تستخدم عمالاجداً ؟

- أين أجدهم ؟ .. العطور على شغالة اليوم أصعب من العطور على وزير !

ومضت الأيام . وحطت هموم جديدة على الحلاقة ومسح الحذاء ومغازلة الكتب والنهاب إلى المقهى . جاءت هموم الخيسار والطماطم واللحوم والملابس والسيارات المنحرفة والمخدرات . وعم محمد يتقدم فى السن ويمسح الأحذية بيد مرتعشة . وسرقنا الزمن حتى قال لى ذات صباح :

- هل تذكر عمالى الثلاثة ؟

- ولما أحببت بالإيجاب قال :

- رجعوا على أحسن حال ، وجاءونى يعرضون على خلوا لذك المحل !

- سأله بقلق :

- وافقت ؟

- للمبلغ قيم ويكفينى حتى آخر العمر ؟

أدركت أن مسح الحذاء سيحشمى إرهاباً جديداً مثل حلقة الشعر ومثل كل شىء ، وسأولت : ألا يوجد وسط بين الانغلاق والانفتاح ؟ .. ألا توجد استراحة لسوى الدخل المحدود ؟

الحنن له أجنحة

استحال صديقى شخصاً آخر عندما ماتت زوجته . كانت زوجته الثانية ، والشقيقة الكبرى لزوجته الأولى التى رحلت مخلقة له ولداً وبتناً . لم يبدأ التفكير فى الزيجة الثانية مدفوعاً بقوة الحب ، وإن بادها الاستطاف من بدء مصاهرته لأمرتها . بدأ الأمر بدراسة وتأمل ووزن للحدوى الاقتصادية . فهى قد جاوزت سن الخيل غالباً ، وهى أرملة لم تنجب ، وهى تحب الولد والبنات حباً صادقاً ، فتنوعت لتنتقلها إلى مسكنها ليلقيا الرعاية والحب . نشأت الفكرة والدراسة ، وهمس بها أهل الخير ، فوجدت ترحيباً من الطرفين ، وتم الزواج ببسر وبأقل التكاليف . واستحال صديقى شخصاً آخر . قال لى :

- لم أتصور أبداً أن الحياة الزوجية يمكن أن تجود بهله السعادة كلها . فمائله فى سن الأربعين ، ولا يزيد جمالها عن

درجة مقبول ، غاية في اللياقة والذكاء وخفة الدم ، وحب الولد والبيت حياً صادقاً .

وعند المناسبة يقول :

— أخاف أن أحسد نفسي ، الولية دكتوراه في كل شيء طيب .
ويتقدم الزمن وتتغير أشياء كثيرة ، وتستمر تلك السعادة الغريبة أو تزايد ، حتى تساءلت في حيرة : أي امرأة تكون تلك المرأة العجيبة ١٢ .

وتزوجت البنت ، وخرج الولد ضابطاً في البحرية ، وأقبل على الزوجين عصر الشبخوخة ولكنهما تمتعا بصحة جيدة وحفاظة غير عادية على مظاهر الشباب ، وبفعل صديقي الزوج السعيد . حتى يدهم ذات صباح بوفاة قريبة إثر أزمة قلبية مباغتة . ما زلت أذكر العناء الذي بذله ليحافظ على توازنه كي يؤدي واجبه نحو الراحلة . ولما جاء دوري لأقول له شد حبلك همس لي بتسليم حاسم :

— أنا انتهيت ..

وكرهل ذي حيرة بالحياة لم آبه لقوله . عرفت الأفراح والأحزان والزمن ، ولم تعد تؤثر في كثير الأفعال الساخنة التي تصدر في الظروف الساخنة . نعم ستسامر قريباً ،

ونحن نقهقه ، وربما كلفني يوماً بالبحث عن روحه لئلا ولكن الحزن طال كليل الشتاء ، ورسخ وتغلغل وكأنه أزم من المسرة تكاد تقتله ، ولا عزاء له إلا في تذكر العشرة الجميلة للولية . كيف أمكن ذلك الحب أن ينحو من اغتراس الزمن ومكر العادة وسم الضجر؟!

— لا طعم لشيء بعدها ..

الحق أقول إنه رغم شدة ارتباطنا لم أحل من ضيق لثباته على كتابته وتكراره لحديث واحد لا يتغير . مللت الشكوى والنوة الباكية وسيرة الراحلة وذكرياتهما . ولكن سيناريو الأحداث لم يتوقف . ماتت ابنته وهي تلد ! . بالدهاية ، هل يتحمل الرجل هذه بعد تلك ١٢ . ووقفنا نسنده . وهو والحق يقال يجمن التماسك أمام الناس .

وتأثرت للحديث مرتين ، مرة من أجل صديقي ، وأخرى من أجل الراحلة العزيزة . ويوما ونحن نتناجي أذهلني بقوله :

— تصدق بالله ١٢ .. لقد احترق قلبي لموت عزيزة ، ولكن حزني عليها لا يعد شيئاً بالقياس إلى حزني على المرحومة !

أذهلني حقاً . جعلت أسرف إلي النظر باستغراب . ألم يمض من الوقت ما يكفي للتعزى عن المرحومة ؟ . كيف

يكشف عن ذلك الاعتراف عقب دفن كرمته بأسبوعين ؟ .
وداخلني شعور بأنه شخص غير طبيعي . أو أن الحزن شنت ازائه القديم . وانصرفت عن مراجعته وثناء لحاله . ولم تتوقف الضربات المنهالة عليه ، فبلغت ذروتها عندما قتل ابنه في الحرب . أداء واحب العزاء يشق على النفس أحياناً ويتجاوز الطاقة . وساورني وأنا مقبل عليه ما يشبه الشعور بالذنب . ولكن شد ما وجدته هادئاً ساكناً كأن الأمر لا يعنيه . وحافظ على ثباته الغريب طيلة وقت الجسارة والمأتم . توقعت أن تحدث أمور أو ردود فعل تعيسة . لم يحدث شيء على الإطلاق . حتى قال لي يوماً :

— ما رأيتك ..؟ تضاربت الأحزان فهلكت جميعاً ..

فأردت أن أقول شيئاً عن الرحمة الإلهية ولكنه قاطعتني :

— صدقتي ، أنا لا أشعر بأي حزن ، لا نحو المرحومة

ولا الابنة ولا الابن ، لا أدري كيف حل هذا السلام كله ..

ثم بلهجة حكيم :

— صدقتي ، لا شيء يستحق الحزن ، دع الحزن للحمقى ، أنا الآن مثل طير لا تربطه علاقة بالأرض ، إنى أيضاً أتألق

الطعام وأحبه ، وأسمع الأغاني الخلوة حتى الثمالة ، وتشيل إلى أنني لم أعرف السعادة من قبل كما أعرفها الآن ..

تساءلت في نفسي : أي حال من الحزن المفرط ١٢

كلا . صديقي سعيد حقاً . صحته في أحسن أحوالها ، استرد لونه الطيب وانتماسه . يجلس نهاره في مقهى أصحاب المعاشات يتسلى بالمديث والسرود . ويمضى أماسيه أمام التلفزيون أو في سماح أغانية المفضلة . إنه يحظى بحرية لا يعرفها إلا قلة من البشر .



إن ما يثير الطفل وهو مقبل على ذلك البيت ، التمساح
المخبط المعلق بالجدار فوق هامة الباب . تبع أمه وهي
تدخل ، ثم وهي تميل إلى الحجر على يسار الداخل .
حيث المرأة . وجلست على كنية حاذية ابنها للجلوس إلى
جانها . ترتدى ملاءة لف و برقعاً ذا عروس مذهبة ،
والطفل يرتدى جلباباً و جاكته وطاقية وصندلاً . قالت بعد
أن نرعت برقعها :

— إن شاء الله تكون أحسن .

ووقفت قاطعة المسافة القصيرة بين الكنية والفرش
المقابل لها في خطوتين لتضع لفة تحملها ، ثم تمصت وهي
ترجع إلى مجلسها :

— جفنتك بالفطائر والبرتقال .

العود والتارجيلة

١٦٣

أجاب في إعجاب الرجل الراقد فوق الفرش :

— ربنا لا يحرمنا منك يا امرأة خالي ..

الحجرة صغيرة ، مغطاة أرضها بكليم مزرکش قديم ،
الفرش ذو أعمدة نحاسية ، وإلى اليمين دولا ب تستقر على
سطحه تارجيلة وعود . الطفل معجب دائماً بالتارجيلة
وزجاج قارورتها الملون ، كما يذكره العود بالألحان فهو
يحب العناء على حدائة سنه . وثمة نافذة نصف مفتوحة
تطل على الطريق الضيق ومن خلالها ترى رعوس المارة . لم
يشف على المرأة تدهور صحة الرجل ، تجلت عظام وجهه
وشحب لونه وتوارى شيا به وراء غمامة كتيبة . سأل
الراقد :

— كيف حالكم يا امرأة خالي ؟

— نعمده ، شد حيلك أنت .

فأسدل جفنيه قائلاً :

— لا أمل في الشفاء يا امرأة خالي .

— وبك كبير ، ويأمر إذا أمر بالشفاء فلا راد لأمره ،

وأم عبده .. ألا تواظب على الجيء ؟



واستغرق الطفل في تفكيره فسأله : متى تزورنا ونحني باروت زمان مرة ١٢

- تنظف المحجرة وتعد اللقمة ثم تركني لوحدي ، أما
أبي فنادرا ما يزورني غفر الله له ، استعبدته المرأة وما
كان كان ، البركة في عمالي وامراته وأولاده .
وانطلق الطفل يقول بصوته المسموع :
- كنت تزورنا وتضرب على العود وتعني ، متى تزورنا ؟
فتو نغر المريض عن ابتسامه أخفى من السر ، وقالت
المرأة :

- إن شاء الله ترجع الأيام الطيبة .

حتى الطفل لم يغيب عنه الفارق الكبير بين الزاقد أمامه
وبين القديم بشباهه ورونقه وضحكته العالية ، وصوته وهو
يعني :

يا ريت زماني مرة

وحط الصمت فقرة ، والمرأة تلو في باطنها آيات من
القرآن الكريم ، حتى قال المريض :

- ما زالت المرأة القاسية تتسلل من حين لأخر إلى
النافذة لتلقي على نظرة متلهفة على موتى !
وهتفت المرأة :

- لا حول ولا قوة إلا بالله ، ولكن الحق على والسدك ،
وربك كبير ورحمته فوق كيد الكائدين ..
واستغرق الطفل في أفكاره فسأله :
- متى تزورنا وتعني يا ريت زماني مرة ؟

سقاولة دلقا

لقاء خاطف

مضيت أهيط درجات السلم العريض نجر الطريق خلفاً
ورائي العمارة الشاهقة . اعترض سبيلي عند نهاية السلم فتى
في الثلاثين من عمره ، حلق في وجهي باسماً . دهشت
لغريب يستوقفني ، ولكنه لم يكتم بذلك . فمسد يده
مصانحاً وقال :

- نحن أقارب !

ابتسمت بدوري وقلت :

- حقا ؟.. الذنب ذنب زماننا الغريب ..

فقال بركة :

- أنا محمد ابن زينب صفوت !

غرنتي فرحة طاغية كادت تهتك ستر الماضي العذب ،
شدت على يده بحرارة ، وتلقيت سيلاً من الذكريات
الناعمة ، وهتفت :

- أهلاً بك ، فرصة سعيدة حقا ..

وفارقتني كما فارقتني ، ولكن لم تفارقتني الذكريات .

النهاية